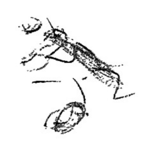
أساطين الحكمة : فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة
(٤)

جون لوك

إمام الفلسفة التجريبية

دكتورة
راوية عبد المنعم عباس
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



١٩٨٧

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ يوسف زيدان

مدير المخطوطات و الاصدارات

جون لوك

إمام الفلسفة التجريبية

دكتورة
راوية عبد المنعم عباس
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

١٩٨٧

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير ـ الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها .

صدق الله العظيم

سورة الشمس ، المصحف المفسر ص ٥١٢ .

إهـــداء

إلى روحين فى عالم الخلود

إلى أبى و أمى

رحمهما الله .

ر. ع. ع.

« العقل صفحة بيضاء يكتب عليها

الحس والتجربة بآلاف الطرق »

جون لوك

تمهيد

تعريف بالمذهب الحسي «لمحة تاريخية» . -

يعد المذهب الحسي [1] من أقدم المذاهب في تاريخ الفكر الفلسفي فقد ظهر عند اليونان ممثلا في مذهب الذريين Atomism على يد لوقيبوس Leucippus (٥٠٠ - ٤٤٠ ق م .) الذي وضع أول تفسير ميكانيكي صرف للعالم دون أن يتعرض لفكرة الغائية ، كما نظر لخصائص المادة التي تمثل موضوعات العلم الكمي باعتبارها خصائص جوهرية للاشياء .

وقد تطور المذهب الذري بعد ذلك على يد ديمقريطس D. mocritus الذي (عاش في القرن الخامس ق.م.) ، ثم أبيقور Epicurus (٣٤٢ - ٢٧٩ ق. م) الذي نادى بمذهب اللذة وشرح النظرية الذرية بعد إضافة أفكار جديدة إليها مثل فكرة سقوط الذرات في خطوط متوازية فيما يشبه المطر ، وإنحراف بعضها تلقائيا ، مما يتسبب في تصادمها .

ويرى الذريون أن العالم يتألف مما هو موجود أي ما يمثل الملاء ، أو الذرات ومما هو غير موجود أي الخلاء أو الفراغ ، وليس في العالم سوى الخلاء والذرات التي تتكون الأشياء باجتماعها وتفسد بافتراقها ، وهي لا تتغير

---

١) يعني هذا المذهب إرجاع كل معرفة إلى الإحساس فمن يفقد حاسة من حواسه فقد المعرفة بما يقابلها من محسوسات . ويطلق مصطلح Sensationalism على المذهب الحسي وهو أحد صور المذهب التجريبي الذي يطلق عليه اسم Empiricism بالإنجليزية وهما في مقابل المذهب العقلي .

منذ الأزل إلا من حيث علاقاتها المكانية . ويرى الذريون أن المادة خالدة ، وأنها تملك مصدراً داخلياً للحركة .

ولاتباع المذهب الذرى نظرية شاملة فى النفس التى يتصورونها مادية تتألف من ذرات سريعة الحركة ، شديدة اللطافة موزعة فى أرجاء الجسد ، وتتحلل معه بعد الموت ، كما فسروا الإدراك الحسى بأنه إنبعاث الذرات من الجسد موضوع الإدراك إلى الحاسة المدركة . أما مذهبهم فى المعرفة فكان حسيا فالأحاسيس صادقة بذاتها لأنها تنطلق من الواقع الموضوعى ، ومنشأ الخطأ هو تفسير الأحاسيس ، وقد عرفوا الاحساس بأنه تدفق مستمر للجزئيات الدقيقة يزاح من سطح الأجسام ويخترق الحواس فيحدث فيها صور الأشياء .

وفى العصور الحديثة نجد ظهورا للنزعة الحسيه عند توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ — ١٦٧٩) الذى يعد خير ممثل للمذهب الحسى الإنجليزى ، فيذهب إلى أن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة ، وإنه إذا فقد الإنسان حاسة من حواسه فقد علمه بما يقابلها من المحسوسات ، وبلغ الاتجاه الحسى أقصى مداه عند هوبز عندما تصور أن أى تصور فى عقل الإنسان ما هو إلا ذرة حسية تصدر من الإحساس ولها خصائص الحس ، كما أرجع الإنفعالات ذاتها إلى حركات جسمية سواء خارجية أو داخلية ورد التخيل ، والذاكرة ، وتداعى المعانى ، — وكلها أفعال تتعلق بالمخ — إلى المادة والاحساس .

ثم ظهر المذهب الحسى فى صورة تجريبية مدعمة بالحدس والتأمل الباطنى عند جون لوك الفيلسوف التجريبى الانجليزى John Locke (١٧٣٢ — ١٨٠٤) .

وقد تطور المذهب الحسي عند دافيد هيوم David Hume الذى أنكر المعرفة الأولية السابقة على التجربة ، وأراد إصلاح عيوب الفلسفات السابقة جميعا فى مؤلفه « رسالة فى الطبيعة الانسانية Treatise of Human Nature» التي كانت قائمة على إفتراضات غير يقينيه وذلك باقامة الأسس لعلم تجريبي صحيح عن الطبيعة الإنسانية كما ذهب إلى أن العقل يتألف من إدراكات حسية تنقسم إلى إنطباعات وأفكار تسمى الأولى بصفة عامة بالإحساسات والمشاعر والإنفعالات ، ويطلق على الثانية إسم الخواطر العقلية ، تتسم الأولى بالقوة والحيوية والحياة . أما الثانية فتمثل نسخا باهته من الأولى — ويطلق عليها هيوم أحيانا إسم « الصور الذهنية » .

بهذه الكيفية بلغ المذهب الحسى أوجه عند هيوم الذى أنكر المعارف العقلية السابقة على التجربة ، وفسر الفكر عن طريق تداعى المعانى فأنكر ضرورة مبدأ العلية كما تصوره العقليون الذين إستهدفهم بنقده ، وأنكر تفكيرهم الميتافيزيقى كما أعلى من قيمة التجربة والأبحاث الرياضية وأكد على أهمية الأسس التجريبية والرياضية .

وقد تطور المذهب الحسى عبر تاريخ الفلسفة ، فظهرت النزعة الحسية والمادية ممثلة فى نظرية التطـور التاريخى للعـالم العضوى عند تشارلز داروين Charles Robert Darwin (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) الذى وضع القضايا الاساسية لنظرية التطـور فى مؤلفه الشهير « أصـل الانواع عن طريق الإنتخـاب الطبيعى أوحفظ الاجناس المنفصلة فى الصراع من أجل الحياة » ، وقد تميزت فلسفة داروين بوجه عام بالنزعة المادية .

وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر يظهر المذهب الحسى المادى متطوراً

فى شكل المادية الجدلية Dialectical Materialism التى تعد جزءاً أساسيا من المذهب الماركسى الذى وضعه ماركس وأنجلز وطوره لينين وغيره ، وتعنى المادية الجدلية النظرة العلمية الفلسفية للعالم .

بعد أن عرضنا فى عجالة لتطور صور المذهب الحسى فى تاريخ الفلسفة نبدأ فى عرض صورة متكاملة للمذهب الحسى التجريبى عند الفيلسوف الإنجليزى جون لوك بوصفه خير معبر عن المدرسة الحسية التجريبية الانجليزية وممثلا لنبض القرن السابع عشر فى مجالات الميتافيزيقا والسياسة والتربية والاخلاق فمازال يذكره مؤرخوا الفلسفة على أن مذهبه الشامل فى جميع هذه الميادين يعد تجسيداً لروح عصره المضطرب الذى عبر عنه بفكر متزن حر نادى بالإعلاء من قيمة الفلسفة والولاء للعقل فاعتبر بحق أحد مؤسسى الفلسفة التى تميزت بها الحضارة الصناعية الحديثة (١) .

وسوف نعرض فيما سيأتى لمذهب لوك التجريبى مفصلين حياته ومؤلفاته كما نعرض لنظريته فى المعرفة ، ثم لآرائه فى مجالات السياسة والأخلاق والتربية والدين .

---

(1) Maurice Cranston, Locke on politics, Religion and Education, New York 1965. p. 7.

الفصـــل الأول

جـــون لوك

John Locke

(١٦٣٢ – ١٧٠٤)

حياته ومؤلفاته

(١) حياته ومؤلفاته وموقفه الفلسفى

أ – حيـاته

ب – الاهتمامات الفكرية للفيلسوف وطبيعة العصر

حـ – مؤلفاته

(١) حياته ومؤلفاته وموقفه الفلسفى

أ : حياته :

١ ـ ولد جون لوك John Locke فى ٢٩ أغسطس من عام ١٦٣٢ (ومن المصادفه أن يوافق يوم ميلاده نفس اليوم الذى ولد فيه بندكت دو سبينوزا الفيلسوف الهولندى وصاحب مذهب وحدة الوجود) في رينجتون Wrington بمقاطعة سومرست Somerset بانجلترا وذلك إبان حكم الملك شارل الأول Charles I ، وقد نشأ الفيلسوف فى أسرة ذات صيت سياسى عريض على الرغم من إنتمائها للطبقة الوسطى في المجتمع الإنجيزى ، فقد عمل والده الذى كان ينتمى إلى جماعة البيوريتان (المتطهرون) بالمحاماة ، كما كان له دورا كبيرا فى الحرب الأهلية ، وكانت أمه التي تكبر والده ببضع سنوات تعيش حياة أسريه هادئة [1] قبل مولده حيث ماتت وتركته صغيرا فتولى أبوه تربيته .

ومما يذكر عن حياته أن تربيته المحافظة التى تلقاها من أسرته المتدينة التقية قد أكسبته صفة الحزم ويقظة الضمير وإعتدال الشخصية . كما علمته

١) تزوج جون لوك من أجنس كين Agnes Keene فى عام ١٦٣٠ وكان لوك هو طفلها الأول حيث كانت الأم تبلغ من العمر ٣٥ عاما وتكبر والده بحوالى عشر سنوات غير أنها كانت على ورع وتقوى وخلق ، وقد تأثر بها لوك وأحبها غير أنه حفظ حبا كبيرا لوالده الذى أشرف على تربيته وزوده بمكارم الأخلاق Ch. Aaron, John Lock – earlyyears. p. 2.

الحذر والإعتماد على النفس ، وتعد دعوته لإحترام مبادىء الحرية وإهتمامه بقضايا السياسة والتربية من بين الآثار الإيجابيه لتلك التنشئة التي أشاد بها فيما بعد في مؤلفاته والتي كان والده قد إتبعها معه فأصبح منذ ذلك الحين يتخذ منها نبراسا للتربية السليمة كما يدعو الناس للاسترشاد بها في تربية أبنائهم .

٢ ـ عاش « لوك » منذ طفولته الأولى في سومرست ، ولما بلغ سن الرابعة عشره من عمره إستكمل دراسته في مدرسة وستمنستر ، وظل بها فتره من الزمن التحق بعدها بكنيسة المسيح [١] في اكسفورد عام ١٦٤٦ حيث تلقى التعاليم الارثوذكسية الفلسفية الصارمة التي تكاد تخلو من أية حياة وكانت تتبع في عصره فتأثر بها غير أنه كان يزاولها ويتابعها على مضض وفي كره شديد ، وظل لوك مستمرا بهذه الكنيسة حتى عام ١٦٥٢ حيث التحق بجامعة أكسفورد فيما بعد .

حصل لوك بعد ذلك على درجة البكالوريوس في عام ١٦٥٦ من جامعة أكسفورد Oxford بعد مضى أربع سنوات من الدراسة والبحث ، ثم حصل على الماجستير في عام ١٦٥٨ حيث عين محاضرا في الدراسات العليا بكليته [في مادتي الفلسفة اليونانية والاخلاق] وكان يتعين عليه أن يظل في هذه المهنة غير أنه فصل منها لإعتبارات سياسية وذلك عام ١٩٨٤ [٢] .

ومن الجدير بالملاحظة أن إهتمامات لوك بالجوانب العلمية قد زادت في

---

1) Christ Churche (Ch. Aaron).

2) R.I Aaron, John Locke. Second Edition Oxford 1955.p.5.

أثناء مزاولته لعمله مدرساً ومحاضراً بالدراسات العليا (١). فقد إتصل عن طريق صديقه روبرت بويل بمنجزات ومؤلفات العلم الحديث ، وكان الأخير يقيم فى أكسفورد بين عامي ١٦٥٤ – ١٥٦٠٠ . وكانت منجزات العلم فى مجالى الطبيعة والكيمياء قد بلغت زروتها فى عصره وبالإضافة إلى الإهتمامات العلمية له فقد كان لوك محبا للحرية ، مناديا بحقوق الانسان ، ويرجع ذلك إلى آثار تلقيه العلم فى وستمنستر وأكسفورد حيث وضع المعهدان تحت إشـــراف جماعة التطهريين وكان جون أوين John Owen عميد كلية المسيح من دعاة التسامح الديني ، كما كان شغـــل أوليفر كروموبل O. Cromwell مستشاراً الجامعة أكسفورد من عوامل إشاعة جو من الحرية وإحترام حقوق الانسان والدفاع الحمس عنها (٢) .

ومما يذكر عن حياة لوك أنه برغم تعدد الجماعات السياسية فى المجتمع الانجليزى فى عصره فقد ظل مستقلا بآرائه عن الانحياز لأى جماعة منها إلا أنه إستفاد من آراء مفكرى عصره وتأثر بمـــا جادت به قرائح العلماء

---

١) كان لوك مهتما بالنواحى العلمية والتعليمية تشهد بذلك زمالته للجمعية العلمية الملكية ، وعلى الرغم من أنه لم يحصل على شهادة رسمية في الطب بيد أنه كان يصب اهتماما كبيرا على دراسته إذ استفاد من خبراته وشغفه بذلك العلم الذى كان اتجاهه له مدفوعا بروح الخبرة وحدها مما لم يروق أعضـاء الجمعية الطبية ، والمشتغلين بالطب فى عصره ، وليس مستغربا أن نجد فكرة الخبرة التى لازمته حياته العملية تنسحب بدورها على مجال المعرفة فيذهب بتأثيرها إلى اعتبار الخبرة هى المصدر الأول والرئيسى للمعرفة .

2) Aaron, John Lock p. 9.

والفلاسفه أمثال بيكون Bacon وهوبز Hobbes وديكارت Descartes كما إنصب اهتمامه كذلك على دراسة اللغات القديمة وقواعد النحو والمنطق الصورى .

ب — الإهتمامات الفكرية للفيلسوف وطبيعة العصر : —

يجدر بنا قبل أن نتتبع النسق الفلسفى عند لوك أن نلقى ببعض الاضواء على المؤثرات التى تأثر بها فكره ، والمنابع التى نهل منها وأهم المجالات التى ولع بدراستها ، وما نتج عن آرائه المتنوعة من مؤلفات عظيمة أفادت الفكر فى عصره فلسفيا ، وعلميا وأخلاقيا ، وسياسيا ، وتربويا .

ففى مجال دراسة اللغة نجده يتلقى منذ حداثة سنه قواعد وترجمة اللغتين اليونانية واللاتينية اللتين إهتم بتعلمها بشغف كبير ولا سيما وقد درس فى مدارس إنجلترا فى ذلك الحين غير أن هذه الدراسة قد وجهت عنايته إلى مسألة اللغة فأخذ يحللها ويفسر ألفاظها ، ويتعمق مضامينها .

فاذا كانت المعرفة هى جملة ما يوجد فى ذهن الانسان من أفكار ، وهى تقوم على أساس الواقع الخارجى وليس من الضرورى أن تقوم على أساس هذا الواقع ، لذلك تعد اللغة شيئا ضروريا بالنسبة لاستكمال تحليلنا للمعرفة ، وعلى الرغم من رفض لوك للافكار الفطرية إلا أنه يرى أن كان اللغة مفطورة فى الانسان قد زوده الله بها [1] أى بالاستعداد لها ، أما إكتساب لغة دون

---

١) شاعت فكرة فطرية اللغة فى الانسان عند كثيرين من مفكرى القرنين السادس والسابع عشر ، ويعد فرنسيس بيكون أحد القائلين بها إستنادا إلى تأثير الكتاب المقدس من أن الله قد خلق آدم وعلمه الأسماء =

أخرى فهذا أمر مكتسب واللغة وفق هذا المفهوم لا تولد مع الإنسان بل إنه يولد وهو على إستعداد للتعبير بها عن أفكاره ، ولذا يمكن القول بأن اللغة مصنوعة صنعها الانسان . ويذكر لوك أن للغة وظيفتان هما - التذكر والتعبير عن الأفكار (١) وحيث أن أتباع المذهب التجريبي وعلى رأسهم لوك يؤمنون بأولوية الوجود أولا ثم التعبير عنه ثانية ، ولما كانت اللغة تعبر عن الفكر أو المعرفة التي تعبر عن الواقع ، ومن ثم فانها تعبر عن الواقع بشكل غير مباشر .

أما في مجال الفلسفة فقد أثرى الفيلسوف آرائه بما إطلع عليه من أفكار فلاسفة عصره ولا سيما فلسفة الافكار الواضحة عند رينيه ديكارت ، وكان إهتمامه الشخصي ، وقراءاته الفردية هما المصدر الوحيد لتنمية أفكاره فوجد في وضوح الفلسفة الديكارتية وجلائها ثورة على الفكر في عصره الذى تشبع بروح الفلسفة الأرسطية التي سادت العصر الوسيط - ومما يذكر عن حياة

= وتعلم الأسماء هو العلم الاول . لأنه يحمل سر خضوع المسميات لمن يعرفها وينطق بها ولأنه يفترض من ثمة الاتصال بين الانسان من حيث هو سيد ، وبين الطبيعة من حيث هي مملكة تخضع له لكن الانسان فقد هذه السيادة حين فقد المعرفة . وهو قد حرم من المعرفه ومن السيادة كليهما نتيجة لارتكابه الخطيئة الاصلية . وفكرة إرتباط المعرفة - معرفة الاســـم - با اسيادة على المسمى فكرة قديمة قال بها الصينيون الذين يعتقدون حتى اليوم أن للكلمة تأثيراً عمليا في الشيء الذى تطلق عليه - دكتور حبيب الشاروني - فلسفة فرنسيس بيكون - دار الثقافة ، الدار البيضاء - ١٩٨٣ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

١) عزمي اسلام - جون لوك - دار المعارف بمصر . ١٩٦٤ ص ١٢٨ .

لوك العلمية وإهتماماته بالفكر أنه قضى فترة نفى فى (هولندا) إنكب فيها على القراءة والبحث وإقتناء الكتب وذلك من دخل بسيط كان والده قد تركه له بعد وفاته ، بالإضافة إلى أجر سنوى محدود كان يتقاضاه من أسرة شافتسبرى وفى تلك الأثناء عكف لوك على البحث والدراسة ومراجعة مذكراته بعمق وتركيز ، ومما يذكر أنه راجع أصول كتابه « مقال فى العقل البشرى » « An Essay Concerning Human Understanding » وهو من الأعمال الهامة التى كتبها فى حياته .

وقد أسهم لوك بنصيب وافر فى إثراء نظرية المعرفة فى جانبها التجريبى experimental فعلى الرغم من أنه قد أغفل خصوبة المنهج الرياضى الذى إحتذاه ديكارت ، وإسبينوزا ، وليبنتز (الفلاسفة العقليين) إلا أنه قد أسهم من جانب آخر فى تنمية نظرية المعرفة فى صورتها الحديثة فنجده يطالب برفض المبادىء والأفكار الفطرية ، ويدعو الناس إلى تأمل فكرها وتعميقه ، وقد دفعته هذه الفلسفة إلى الإهتمام باللغة فأخذ يحللها ويحاول تفسير ألفاظها ومعانيها ، فميز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية ، كما قام أيضا بتحليل فكرة الجوهر وطبق المنهج التجريبى الإستقرائى فى مجال فلسفته أسوة بعلماء وفلاسفة عصره أمثال بيكون . وهوبز ، ونيوتن ، وبويل ، وسيدنهام وغيرهم .

وفضلا عن اهتماماته بمجالات اللغة والفلسفة والعلم والتربية والسياسة فقد اهتم بالطب بصفة خاصة حيث دفعه إعتلال صحته منذ طفولته إلى مثل هذا النوع من الدراسة فى محاولة للحفاظ على حياته ، وقد شجعته صداقته بالطبيب توماس سيدنهام على هذه الدراسة وكان الأخير ممن يرفضون الأسلوب

التقليدى فى ممارسة الطب ، وينادى بالاعتماد على الملاحظة Observation فى ممارسة العلاج ، وربما يكون هذا الإتجاه فى ممارسة الطب قد أثر على لوك فى صياغته لفلسفته التجريبية [١] فدرس الطب عملياً على نفقته الخاصة فى الجامعة ، وحصل بصعوبة على درجة علمية فيه فى عام ٩٧٥ إستطاع بمقتضاها أن يمارس مهنة الطب عمليا لكنها لم تصبح مهنته الرئيسية بل كان يزاولها من حين لآخر ، وتعد رواية إنقاذه لحياة صديقه لورد شافتسبرى [٢] Shaftesbury أحد العلامات الرئيسية على طريق إهتمامه بالطب العملى ، فقد أجرى للورد عملية جراحية أنقذ بها حياته كان من نتائجها أن كسب ثقته فأوكل إليه بشئون أسرته ، كما عهد إليه بادارة سكرتارية مستعمرة أمريكية إستطاع لوك أن يمارس فى صياغة دستورها ماولع به من مبادىء حب الحرية ، واحترام حقوق الإنسان إذ نص فيه على آراء جديدة تضمنت مبادىء الحرية والتسامح الدينى .

أرسل لوك بعد ذلك فى بعثة دبلوماسية فى عام ١٦٦٥ مارس فيها السياسة عمليا ، حيث عمل سكرتيرا لهذه البعثة برئاسة سيروالترفان Sir Walter vane التى سافرت إلى حاكم براندنبورج تطلب منه التحالف معه أو إلتزام الحيدة

---

١) د محمد على أبو ريان ـ الفلسفة الحديثة ـ دار الكتب الجامعية ـ طبعة أولى ١٩٦٩ ص ١٠٨ .

٢) إلتقى لوك بلورد آشلى Anthony Ashley Cooper عام ١٦٦٦ صدفة فى أكسفورد وبعد عام واحد فقط أصبح لوك من أكثر أصدقاء اللورد ومستشاريه ومن أكثرهم تمتعا باحترامه بوصفه طبيبه الخاص والمستشار الخاص فى المسائل العامة . Aaron, p. 18.

فى حرب هولندا ، ومن ممارساته السياسية أيضـا أنه أختير للذهاب إلى أسبانيا لشغل منصب سكرتيرا للسفير عام ١٦٦٦ ، كما أختير عضوا فى الجمعية الملكية عام ١٦٦٨ ، وقد إكتسب الفيلسوف الـكثير من الخبرات السياسية فى هذا المجال . كما حركت فيه المشاعر الانسانية ، ومبادىء الحرية والمساواة والحق والعدل التى كشفت عنها مؤلفاته السياسية فيما بعد .

أما فى مجال السياسة وهى من المجالات التى أولاها لوك عناية خاصة فقد كان ثائراً سياسيا ، وصاحب آراء ومبادىء فى الحرية والمساواة ، وقد احتمى فى هذا الموقف السياسى باسم صديقه لورد شافتسبرى الذى أسهم بدور كبير في ميادين السياسة والاخلاق والاجتماع ، كما كان من بين المؤثرين سياسيا وإجتماعيا فى عهد شارل الثانى Charles II ملك إنجلترا . ويبدو أن مفهوم عصره كان لايشجع على الإعمال السياسية والثورية فكان المدافع عن الحرية مهاجما للسياسة ، بل ومارقا عن الدين ، ولما كان لوك ثائرا متحمسا فان حماية صديقه شافتسبرى ومساندته له فى آرائهالسياسية والثورية كانت واحدة من العوامل التي أمنته شر السلطة وساندته فترة من الزمن ، لاسيما وأن صديقه كان مقربا للملك فقد عمل حاملا لأختامه عام ١٦٧٢

وقد تضمنت كتابات لوك السياسية تبريراً نظريا للاراء السياسية التى يعتنقها الذين يبغون التخلص من حكومة « آل ستيوارت» المستبدة المتعسفة حتى يستبدلوها بملكية محددودة السلطات .

وجدير بالذكر أن الفيلسوف قد خصص بحثيه عن الحكومة لشرح وتفسير

(1) O, Connor D - J, J, locke d 6.

وتفنيد الأوضاع السياسية فى بلاده وكان هدفه «تطبيق نظرية الحكم المطلق» التى إختلفت عن وجهة نظر هوبز فى السلطة . بل عبرت عن السلطة الأبوية وهى السلطة الشبيهة بسلطة الأب على أبنائه . والتى تستمد مباشرة من السلطة التى منحها الله لآدم .

ويحاول لوك فى بحثه عن الحكومة أن يبحث فى مسأله السلطة الأبوية من ثلاث نواحى فيشير إلى

أولا . أن سلطة الأب على الأبناء ليست مطلقة أو على الأقل عندما يبلغون سن الرشد [1] .

ثانيا . أن العلاقة بين الملك ورعاياه ليست مماثلة حقيقة للعلاقة بين الأب وأبنائه .

ثالثا : أنه من الصعوبة الشديدة تعقب الانتقال المباشر للسلطة الأبوية من آدم إلى الملك شارل الثانى . ويحاول لوك فى بحثه الثانى أن يوضح رأيه الخاص فى هذه المسألة .

وفى عرضه لمبادئه السياسية يتبع لوك التقليد شبه التاريخى الذى كان متبعا فى عصره ، فيتصور أن المجتمعات قد ظهرت باعتبارها حالة من حالات الطبيعة الفطرية [2] ونتيجة للعقد الاجتماعى الذى اتخذه الافراد مشتركين للخضوع لحاكم ، أو عدة حكام فى سبيل الحصول على مصالح يعينها . لكن هوبز قد دلل على أن الحاكم فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يكون إلا حاكما مطلقا

---

(1) Locke, Second Treatise on Civil Government p52 - 53.

(2) Ibid., p. 19 – 20.

وإذا كان لابد من كبح جماح بعض أعضاء المجتمع بطريقة فعالة ، فلابد أن يتمتع الحاكم بسلطة مطلقة فوق الجميع تتميز بما يلى :

أولا : أن يتمتع الحاكم بحقوق محدودة كغيره من الناس بواسطة قانون الطبيعة .

ثانيا : أنه قد فوض السلطات على أنها ضرب من الثقة تستخدم لخير أفراد المجتمع ، وبالتالى يمكن إسترداد تلك السلطات إذا زالت الثقة .

وعلى الرغم من أن لوك كان معارضا لنزعة السلطة المطلقة إلا أنه لم يكن بالطبع ديمقراطيا بأى معنى من المعانى ، فضلا عن أنه لم يكن على إيمان يخلو من النقد بالمجالس المنتخبة ، وأقل من ذلك إيمانه بالجماهير عامة كما أنه لم يكن يعتقد بضرورة وضع السلطة فى أى مجتمع فى يد شخص أو مجموعة أشخاص كما كان يعتقد هوبز ؛ ويرجع ذلك لاعتقاده بعقلانية السلوك على عكس هوبز .

بعد أن أبرزنا دور لوك فى مجال العمل السياسى نعود لنبين مجهوداته فى مجال الأخلاق الذى يتسم بالطابع العملى ، حيث يؤكد على الغاية من الفعل الأخلاقى والأهداف التى يسعى لتحقيقها ، وأنه يجب على الإنسان أن يمارس سلوكه الأخلاقى على أكمل وجه من حيث أن لديه قدرات تمكنه من بلوغ ذلك . وإن كانت هذه المعرفة تتوزع على الناس بنسبية وتفاوت . وفى هذا الموقف الأخلاقى العملى نجد إتفاقا بين لوك وديكارت من حيث منادتهما بتقرير غاية السلوك الأخلاقى وأهدافه غير أن الأول ينتقل بعد ذلك إلى إقامة علم نظرى للأخلاق ينتقل فيه من منطق الواقع (الأخلاقى) إلى منطق

الرياضيات النظرى فى مجال الدراسات الأخلاقية ، وهو بذلك يربط بين مناهج الرياضة والدراسات الأخلاقية النظرية بما يسمح باقامة نظام من الأخلاق مؤسس على المعرفة الحدسية أو البرهانية .

ويختلف النسق الأخلاقى عند لوك فى هذا الصدد عن مذهب الأخلاق كما ورد عند دافيد هيوم David Hume الذى ينظر اليها بوصفها علماً تجريبياً يتميز بالنسبية ، ويرتبط بالدراسات السيكولوجية لأنه يستند إلى الغريزة ، ويعتمد على المشاركة أو التعاطف بين البشر لتحقيق سعادتهم ومنفعتهم .

ووفقا لذلك تقوم الأخلاق عند هيوم على تحليل الإنفعالات والعواطف لمعرفة نتائجها التجريبية ، لذلك تنتفى فى فلسفته الأخلاق النظرية وتحل محلها الأخلاق النسبية التجريبية .

وفضلا عن آراء لوك فى المجال الاخلاقى نجده ينشر أفكاره فى التربية ويضمنها كتابه « آراء فى التربية » Some Thoughts Concerning Education وقد نشره عام ٩٦٣ [١] مدافعا فيه عن حق الفـــرد فى حريته الشخصية والفكرية، ومناديا باستقلال التعليم عن الكنيسة ، وعن الحكومة أيضا. وهو يقترح في رسائله لكلارك بعض الأفكار التى تبناها عن الفيلسوف روسو وعدلها وأخرجها فى صورة جديدة فى مؤلفه « إميل Emile أو فى التربية » ويمكن أن نوجز آراء لوك وأفكاره فى التربية فى النقاط التالية وهى :

---

١) وكان هذا الكتاب يشتمل على مجموعة من الرسائل أرسلها لوك إلى صديقه إدوارد كلارك Edward Clarke .

١ - محاولة ادخال مناهج جديدة للتعليم تختلف عن المناهج الروتينية القديمة التى كانت متبعة فى المدارس فى ذلك الحين .

٢ - محاولة إمداد التلاميذ فى المدارس بآخر تطورات العلم فى عصره .

٣ - التأكيد على أهمية العنصر الاخلاقى فى التربية السليمة ولهذا فقد حرص على تزويد التلاميذ بالقيم والفضائل الاخلاقية .

٤ - الاهتمام بالصحة الجسمية ، والايمان بأن العقل السليم فى الجسد السليم [1] .

٥ - رفض استخدام وسائل الارهاب والتخويف فى عملية التعليم حتى يشب الطفل متمتعاً بالمقومات الكاملة للشخصية ، كما رأى أن تعليم المبادىء القويمة [2] لا يتم إلا عن طريق القدوة الحسنة والمثال الطيب وليس بسرد الموعظة والارشاد .

٦ - عدم الاهتمام بدراسة اللغتين اللاتينية واليونانية [3] .

ومن النظر إلى تلك المفاهيم التربوية التى نادى بها لوك نجد بينها وبين قواعد وأصول التربية المتبعة فى العصر الحديث الكثير من وجوه الشبه فالوسائل التربوية الحديثة تتبع نفس المنهج الذى كان ينتهجه لوك فى مسار العملية التعليمية والتربوية فى المدارس .

---

1) Locke, The Sound Mind inthe Sound Body p. 150, (From Some thoughts ConCerning education)

2) Ibid p. 73.

3) Ibid p. 69.

وبالاضافة إلى نشاط لوك فى المجالات الفكرية المتنوعة فقد أتاحت له أسفاره فرصة التعرف على رواد الفكر فى عصره فقد غادر إنجلترا إلى فرنسا فى عام ١٦٧٥ وظل بها أربع سنوات تعرف فيها على نيقولا مالبرانش ، وبير نييه ، وتوماس هيربرت ، الذى صار فيما بعد ايرل أوف بمبروك والذى أهداه لوك كتابه « مقالة فى العقل البشرى » كما تأثر كثيرا فى أثناء وجوده بفرنسا بتلاميذ جاسندى Gassendi وقرأ الفكر الديكارتى الذى شغف به ولما عاد بعد اقامته في فرنسا إلى بلده انجلترا وجد أن المناخ السياسى لايناسبه إذ حرم من نشر كتبه التى رأت فيها السلطة حماساً زائدا وخروجا عن مناهج الكتب المقدسة [1] .

وكان القبض على شافتسبرى ومحاكمته بتهمة الخيانة من بين الاسباب التي دفعت لوك للفرار من انجلترا واللجوء إلى هولندا فى عام ١٦٨٣ (هذا البلد الهادىء الجميل على حد قول ديكارت) وعلى الرغم من أن معظم مؤلفاته ظهرت هناك إلا أنه لم يشعر بمعنى الاستقرار الكامل فى هذا البلد الذى أحبه الفلاسفة ورجال الفكر لأن حكومته كانت قد وضعت إسمه فى القائمة السوداء وطالبت هولندا بتسليمه إليها مما إضطره إلى محاولة التستر واخفاء شخصيته تحت اســـم مستعار هو دكتور فان درلندن Dr Van Derlinden [2]. وبعد هجرة طويلة عن بلده عاد لوك إلى انجلترا بعد نجاح

---

1) Maurice Cranston, Locke on Politics Religion and Education — p. 3. N.Y F.E, 1965.

2) Maurice Cranton, p. 13.

ثورة ١٦٨٨ ونولى وليام أورانج عرش البلاد ، وتوفى بعد رحلة كفاح وعمل في منزل أسرة ماشام التي كان يقيم عندها بصفة دائمة وذلك فى عام ١٧٠٤ أو بعد عامين من عزل الملكة آن .

د ـ مؤلفاته :

كتب لوك مؤلفات عديدة فى شتى موضوعات المعرفة الانسانية فى نظرية المعرفة ، والسياسة ، فضلا عن الاخلاق ، وكذلك التربية والدين وغيرها من مؤلفات .

وهذه قائمة بمؤلفات الفيلسوف مع تاريخ صدورها ، وفكرة موجزة عن موضوعاتها ومناسبات ظهورها : ـ

١ ـ « المقالة فى العقل البشرى »

An Essay Concerning Human Understanding

وقد ظهرت المسودة الاولى من هذا الكتاب الهام فى نهاية عام ١٦٧ وكانت بعنوان :

An Early Draft of Locke's Essay, together with excerpts From his journals.

أما المسودة الثانية للمقالة فقد ظهرت في عام ١٦٩٠ تحت عنوان .

An Essay Concerning the Understanding Knowledge Opinion and assent.

وقد ظل لوك منذ عام ١٦٧١ يؤلف في مسودتيه القصيرتين وتوسع فيهما على مدى ما يقرب من عشرين عاما حتى عام ١٦٩٠ ، وهو تاريخ ظهور أعظم أعماله والمقال فى العقل البشرى ، ثم ظهر بعد ذلك فى طبعة رابعة عام

١٧٠٠ وعلى الرغم من ظهور المقال فى صورة مهوشة ، ضخمة ، مليئة بالتكرار مما يدل على إنه قد كتب على فترات متباعدة إلا أنه قد صيغ بأسلوب عالم كبير ، وفيلسوف متزن واضح ، فأصبح المؤلف الرئيسى والشهير للوك منذ عصره وحتى الآن (١) . وينقسم هذا المؤلف الضخم إلى أربعة أقسام يبحث فى الأول نظرية الافكار والمبادىء الفطرية ، أما الثانى فيتناول فيه مصادر الفكر الانسانى ، ويعرض فى الثالث للعلاقة بين الفكر واللغة ، أما القسم الأخير فيبين فيه نظرية المعرفة . وقد أثير حول كتابه المقال ثمة نقد منها إنه لم يكن حريصا على كتابة تفصيلات وقائعه ، كما لم يكن دقيقاً فى التوصل إلى النتائج التي ينطوى عليها موقفه (٢) .

٢ - رسالة فى التسامح :

« Aletter Concerning Toleration »

ترجمها W.M Popple عن الأصل اللاتينى التى كتبت به تحت عنوان :

« E istola de Iolerantia ad Clarissimum Virum »

وقد ظهرت بلغتها اللاتينية وترجمت فى عام ١٦٨١ وبعدها نشر لوك رسالة ثانية فى التسامح عام ١٦٩٠ Asocond Letter Concerning Toleration

ثم نشر بعدها بعامين رسالة أخرى بعنــوان « رسالة ثالثة في التسامح » « a third Letter For Toleration » وذلك فى عام ١٦٩٢ .

وظهر له جزء من الرسالة الرابعة بعد وفاته حيث لم يكن قد إستكملها

---

1) Alexander Campell Frasser. J. Locke. an Essay. p. 1.

2) A – D Woozley, John Locke — Essay p, 31.

و كتاب سياسى آخر عن « الدساتير » وكان قد أتمه عام ١٦٧٣ ولم يقم بنشره فنشروا جميعا بعد وفاته فى عام ١٧٠٦ .

٣ ـ رسالتين عن الحكومة :

« Two Treatises of Govern ment

وقد ظهرت فى عام ١٦٩٠ ، وتكرر ظهورها عام ١٦٩٤ .

وتهتم مجموعة المؤلفات السالفة ببحث الموضوعات السياسية والثورية التى كانت مثار بحث وتساؤل وثورة فى عصر لوك ، ويكفى أن نذكر أن تفكيره فى كتابه « بحثان عن الحكومة » إنما قد دفعه إليه ما آل إليه حاله السياسى من شهرة وما اكتسبه من خبرة بالعمل السياسى وخاصة إبان قيام ثورة المحافظين فى عام ١٦٨٨ (٢) .

٤ ـ بعض أفكار عن التربية :

« Some Thoughts Concerning Educat on »

وظهر من خلال طبعتين الاولى فى عام ١٦٩٣ والثانية فى عام ١٦٩٥ ويعرض فيه لأهم مبادىء التربية .

٥ ـ معقولية المسيحية :

Reas nab'eness of Christianity

وقد ظهر فى عام ١٦٩٥ وكان لهذا المؤلف دفاعان عن رأى صاحبه ظهر الاول فى عام ١٦٩٥ First Vindicatiou أما الثانى Second Vindication فقد ظهر عام ١٦٩٧

---

1) A aron John L cke, p. 17.

٦ ـ مجموعة كتب نشرت للوك بعد وفاته عم ١٧٠٦ :

أ ـ كيف يعمل العقل

of the Conduct of the Understanding.

ب ـ دراسة لرأى مالبرانش فى رؤية الاشياء فى الله

an examinaiien of Malebranches opinion of Seeing all things in god.

جـ ـ بحث فى المعجزات

A Discourse on Miracles

د ـ جزء من رسالة رابعة فى التسامح

Part of a Fourth Letter on toleration

(وقد سبق ذكر هذا الجزء فى أعمال لوك السياسية)

هـ ذكريات تتعلق بحياة شافتسبرى

Memories Relating to the Life of Antony First Earl of shaftesbury

٧ ـ وفى عام ١٧١٤ نشرت الآثار الباقية من جون لوك

The Remains of John Locke (١)

١) د. عزمى إسلام ـ جون لوك ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ص ٢٢١.

الفصل الثانى

نظرية المعرفة

(١) مبحث المعرفة ـ رؤية عامة .

(٢) مفهوم مبحث المعرفة .

(٣) المدخل إلى نظرية المعرفة عند لوك .

(١) مبحث المعرفة : رؤية عامـــة .

قبل أن نوضح أنواع وحدود المعرفة عند لوك ، يجدر بنا الإشارة إلى مبحث المعرفة بصفة عامة حتى يتسنى لنا تحديد مسلكه في هذا المبحث الذى يدور موضوعه حول إمكان قيام المعرفة وحدودها ، ومبلغ صحتها ، والطرق المؤدية إلى اكتسابها . وتجدر الإشارة إلى أن هذا المبحث قد اختلط لفترة من الزمن مع مبحث الوجود ، بيد أن ظهـــور حركات الشك قد أدت بالعقل الإنسانى إلى البحث فى أدوات المعرفة ، ومسالكها قبل الخوض فى مشاكل الوجود الحقيقية .

(٢) مفهوم مبحث المعرفة : Epistem logie (١)

يختص هذا المبحث بالطرق المتعلقة بالمعرفة ، وهى ثلاثة يبحث الأول فيها عن إمكان قيام المعرفة ، وحدودها ومدى صحتها ، ويبحث الثانى فى الطرق الموصلة إلى اكتسابها ، أما الطريق الثالث فيبحث فى موضوعات المعرفة ، أو طبيعتها ويرتبط مبحث المعرفة بالوجود إرتباطاً وثيقاً عن طريق هذا المسلك ـ البحث فى موضوعات المعرفة ـ .

وقبل أن ننتقل إلى بحث موقف « لوك » فى ضوء هذا المبحث يجدر بنا أن نوضح بإيجاز هذه الطرق الثلاثة التى يتكون منها هذا المبحث .

---

1) Epistemologie — Epistemology
(نظرية المعرفة ـ فلسفة العلوم)

(أ) إمكان المعرفة : ـ

يختص هذا الطريق بامكان المعرفة ، وحدودها ، ومدى صحتها ، و يتناول المعرفة فى هذا الطريق أتباع مذهب اليقين (الدجماطيقيين) (D gmatisme) الذين يرون أن كل معرفة عقلية أم حسية صادقة تماما . ويندرج تحت هذه الطائفة أصحاب مذهب اليقين من المعروفين بالنقديين (Criticisme) وهم الذين يرون ضرورة تعيين حدود المعرفة الانسانية قبل الخوض فى مسألة ماوراء الحس . كما يتابع نفس الطريق أتباع مذهب الشك (المتشككون) (Scepticisme) الذين ينكرون المعرفة و يتعارضون فى اتجاههم مع أصحاب مذهب اليقين ، كما يذهبون إلى أن الفرد مقياس المعرفة ، وهم ينقسمون إلى ثلاث طوائف هم : أصحاب الشك الهادم ، والقائلين بنسبية المعرفة (Relativité de la Connaissance) ، ثم اللاأدريون (Agnosticisme) ، أما الطائفة الثالثة فهم أتباع مذهب الشك المنهجى Doute Méthodique وهذه هى الفرق ، و أتباع المذاهب التى ينطوى عليها الطريق الأول من مبحث المعرفة المتعلق بامكان قيامها و حدودها ومدى يقينها .

(ب) مسالك المعرفة . ـ

يختص هذا الطريق بالبحث فى الطرق الموصلة إلى اكتساب المعرفة ، وهو يتصل بمشكلات الاحساس ، والخيال ، والذاكرة ، ومشكلة الادراك العقلى ، وكذلك الحدس بأنواعه المختلفة .

وتنقسم الآراء فى هذا الطريق إلى ثلاثة اتجاهات كذلك هى إتجاه العقليين ، واتجاه الحسيين ، ثم النقديين . أما العقليون فيرون أن العقل المستقل

عن التجربة هو مصدر المعرفة . فى حين يرى الحسيون أن الحس هو المصدر الوحيد لها . أما النقديون وهم أتباع الاتجاه الثالث فيردون المعرفة إلى الحس والعقل معاً ، ويحددون دور كل من الطرفين فيها (١) .

(جـ) طبيعة المعرفة : —

أما الطريق الثالث من مبحث المعرفة فانه يتعلق بدراسة طبيعتها ، أى حقيقة موضوعها . وينقسم الفلاسفة فى هذا الموضوع إلى أربع فرق هى الواقعيون ثم المثاليون ، وأصحاب المثـــالية المتعالية . وأصحاب مذهب الظواهر .

ويرى الواقعيون أن موضوع المعرفة مستقل عن قوانا العارفة أما الفريق الثانى (المثاليون الذاتيون) أو (التصوريون) فيرون أن موضوع المعرفة مطابق لأفكارنا . فى حين يرى الفريق الثالث الذى يمثله أتباع المثالية المتعالية أن موضوع المعرفة يجاوز نطاق الحس ، والتجربة فى حين يرى الفريق الرابع لأتباع مذهب الظواهر أن موضوع المعرفة ليس مستقلا عن إدراكنا كما أنه ليس أفكارنا كذلك ، لكنه يرجع إليها بطريقة معينة .

(٣) المدخل إلى نظرية المعرفة عند لوك :

ينصب إهتمام جون لوك على البحث فى أصل المعرفة الانسانية ويقينها وحدودها . وقد رأى أن على الفلاسفة ألا يتجاهلوا العلوم الطبيعية بل يجب

---

(١) محمد على أبوريان : الفلسفة أصولها ، ومبادئها . دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ٩٧٨ ص ٢٠٦ .

أن يضعوا نصب اعينهم تأثير الكشوف العلمية على فلسفاتهم بل وعلى الآراء العادية التي تعبر عن الذوق (الفطرى)، وأن الحكم على العالم يجب أن يكون فى نفس درجة حكم العالم الطبيعي عليه، وهذا الرأى يشبه الفكرة التي سادت العصر الوسيط عن (الماهية الأسمية للجوهر) ، والتي تعنى الصفات الملحوظة التي تحدد الإستعمال العادى لإسمها الخاص ولا شيء عدا هذه الصفات ، أما الماهية الحقيقية فانها تتألف من جهة أخرى من التركيب الفيزيقى لأجزائها غير المحسوسة . ومن هذا المفهوم يؤسس لوك موقف فيزيقى درى أو جزيئى من المادة فيجعل منها حقيقة ميتافيزيقة مطلقة وهذا هو الموقف، الذى نقـــده باركلى G. Berkoly [١] بشدة عند لوك على الرغم من انه ظل منذ القرن السابع عشر يمثل إضافه جديدة ومبتكرة للنظارة العلمية الواعية للعالم وسمة بارزة من سمات النهضة الأوربية .

---

١) باركلى George Berkeley فيلسوف اللامادية Immaterialism ولا يعنى هذا المسمى ان مذهبه ينكر المحسوسات، وإلا لما ادركناها كما أنه لا يحول الأشياء إلى معانى، بل العكس يحول المعانى إلى أشياء ، فالشيء ليس له وجود مادى مستقل عن إدراك الانسان له . غير أن مذهب باركلى ينتهى به إلى ضرب من المثالية القريبة من الأفلوطينية حينما يتصور أن هذا العالم موجود في العقل الالهى اللامتناهى ، وباركلى فيلسوف مثالى يرجع الوجود إلى الادراك Perception فوجود الأشياء يعنى إدراكها إذ لا وجود لغير المدرك ولذلك فان المادة عنده لا تدرك فى ذاتها بل تمثل معنى مجرد فحسب (لا يمكن تصوره بدون كيفياته) ، بهذا النص يرد باركلى على لوك وعلى ديكارت أيضاً فهو يرفض أن تكون الكيفيات مثل اللون والطعم والرائحة ثانوية أو ذاتية من حيث وجودها بالنسبة للناظر أو المتذوق فحسب إذ =

(أ) صورة العالم في فكر لوك :ـ

يذهب لوك إلى أن العالم الفيزيقي يتكون من كثرة لامتناهية من الأجسام المادية التي تتكون من جسيمات أو « جزئيات لا محسوسة » تدرك على أنها أجسام غاية في الصغر . ويعمل هذا النظام المادى الطبيعى بصورة آلية ويمثل الواقع أو الدافع علة حركة هذه الأشياء التي تعمل في الطبيعة ومن ثم يمكن النظر إلى الأشياء العادية باعتبارها آلات وعلى نحو ما أشار لوك إلى إلى هذا النظام من الأجسام التي تتفاعل بصورة مادية فقد أشار إلى وجود نوع آخر من الجواهر اللامادية التي يترابط بعضها بطريقة غامضة مع أشياء مادية جزئية هي الأجسام الإنسانية ، ويذكر أن أعضاء الحس تتنبه بطريقة آليه فتحدث في الانسان إحساسات مختلفة يشعر بها أو قد تحدث في ذهنه أفكاراً معينة يسميها لوك بأفكار الاحساس التي يضع في مقابلتها أفكارا أخرى هي ما تعرف بأفكار التأمل .

معنى ذلك أن لوك قد صنف الأفكار إلى نوعين في الذهن يرجع كل منهما إلى التجربة التي تعتمد على الملاحظة ، التي تكون على نوعين أحدهما خارجية

= أن الحرارة ليست في الجسم بل في الشيء الذى يحس والدليل على ذلك أن الشيء الذى يبدو لى صغيرا حين أنظر إليه من بعد كبير قد يبدو لى كبيرا حين أقترب منه وهنا ينكر باركلي الكيفيات الأولية والثانوية ويبقى على فكرة واحدة وهى أن العالم مجموعة أفكار، ومعنى ذلك أن الأشياء إنما توجد قياسا على عقل يدركها » (Berkeley Treatise Para 3

Frederick Copleston S.J: A History of Philosophy Vol.5, p. 11-31.

external موضوعية objective مصدرها الحس الظاهر Sensation (١) .
والثانية داخلية Internal ذاتية Subjective مصدرها التفكير Reflection (٢)
ولا يعنى ذلك أن الأفكار التى توجد فى العقل يكون مصدرها الأولى دون
الثانية ، بل يرجع مصدرها إلى التجربة الخارجية والتأمل الداخلى . ووفقا
لذلك ترد المعرفة برمتها إلى الحس (٣) .

---

1) AN Essay Book II chap 23 p: 178.

2) Ibid.

3) Morris. GR. Locke, Berkeley and Hume oxford. university 1931. p 34.

ب) لوك والخبرة الحسية (مصادر المعرفه) :

رأينا مما سبق كيف حلل لوك الخبرة الحسية إلى مصدرين أساسيين هما أفكار الإحساسات وأفكار التأمل (الإستيطان) - كما أكد على رد المعرفة كاملة إلى الحس فهو يتصور أن العقل صفحة بيضاء Atabula Rasa يكتب عليها الحس والتجربة بآلاف الطرق »[1] فهو مثل صفحة بيضاء تبدو خالية تماما من كل كتابة عليها ، وخالية أيضا من أى أفكار ، ونحن الذين نملأ صفحة العقل الخاوية البيضاء بما تمده لنا حواسنا عن أشياء العالم الخارجى . وبهذا الموقف يعد لوك مؤسس المذهب التجريبي فى الفكر الفلسفى الحديث .

ولا يعنى قول لوك بخلو العقل إلا من أفكار الحواس أنه يقف سلبيا فى عملية المعرفة ، بل على العكس فانه يتضمن إستعدادات كبيرة ، وعمليات دقيقة ، من تذكر وتخيل وتصور ومقارنة وقدرات كثيرة كالقدرة على التبسيط والتركيب والتشخيص والتجريد ، وهى ليست عمليات مكتسبة مثل الأفكار من خارج العقل ، بل هى أمور عقلية نبعت من طبيعة العقل ذاتها .

ولكن كيف يتسنى للأشياء المادية التى تحسها حواسنا ونشعر بها أن تتحول إلى مجرد أفكار فى أذهاننا ؟

يقول لوك إن أفكار الإحساسات تنتج من تأثير الأشياء المادية الجزئية الموجودة فى العالم الطبيعي حولنا فنحن نرى أشياء كثيرة حولنا مثل المقاعد والنوافذ والطرق والأشخاص نرى كل هؤلاء بحواسنا ، ومن خلال ضوء

---

1) AN Essay. p 160.

معين ترى العين الأشياء ، كما تشعر اليدان بالبرودة والسخونة عن طريق اللمس ، ويشعر الفم بالطعوم عن طريق التذوق وهكذا تفعل سائر الحواس التي خلقها الله فينا [١] ، ويحدث بعد الرؤية أو الشعور بالأشياء الجزئية أن تؤثر هذه الأشياء على حواسنا فينتقل هذا الأثر إلى مراكز الإحساس في المخ ومن ثم تنتج «أفكارا» في عقولنا مستمدة من الصفات الحسية الموجودة في الجسم الخارجي مثل حجمه ، ولونه ، وطعمه ، ورائحته ، ودرجة صلابته أو ليونته وغير ذلك من أمور .

يرى لوك أننا لا نستطيع تفسير هذه العملية بوضوح كاف من حيث أنها تعزى إلى الله ، وتتم بفضله ومن ثم فلا ينبغي علينا الخوض في مسائل أكبر من مستوى معرفتنا الإنسانية يكفينا أن نعرف فحسب كيف تتكون الأفكار في عقولنا دون الخوض في مسائل فسيولوجية سيكلوجية يختص بها علم النفس والفسيولوجيا أكثر مما تختص مجال الفلسفة . وعلى أية حال فاننا نستطيع أن نجمل موقف لوك من الخبرة الحسية على الوجه التالي :ـ

أولا : وجود شيء مادي جزئي محسوس .

ثانيا : ادراكه بواسطة حاسة إنسانية (بصر ـ سمع ـ شم ـ لمس ـ تذوق) .

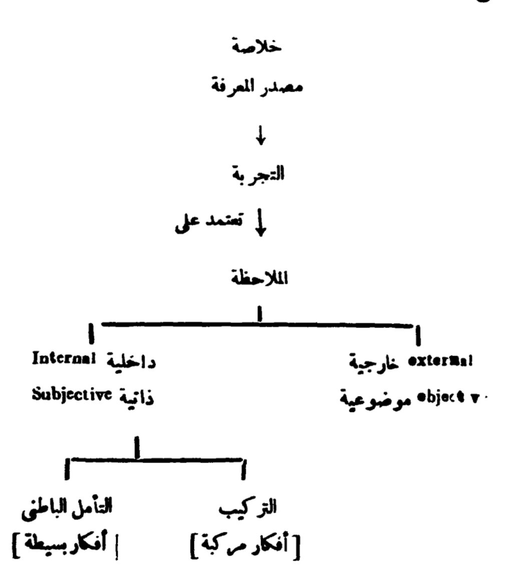
ثالثا : ترجمته عن طريق مراكز الاحساسات في المخ في ضوء صفاته الحسيه كاللون والطعم والرائحة والصلابة والليونة والشكل .

---

1) AN Essay, Book II Ch 8 Para 26 p. 181.

رابعا : تكون فكرة فى المخ (الذهن) عن هذا الشيء .

أما أفكار التأمل أو الإستبطان فهى تلك الأفكار التي تنتج لنا بعد عملية التأمل فى الأشياء التي سبق أن أدركناها عن طريق الحس فمثلا عندما نرى تفاحة حمراء ، أوليمونة صفراء ، ونقر بأن لونها أصفرفنحن فى هذا التقرير إنما نكون قد قمنا بعملية تأمل واستبطان داخلى لهذا اللون الأصفر ولذلك يصبح الإدراك الحسى باعتباره حصيلة عقلية فكرة من أفكار الاستبطان .



وهناك كثير من الأفكار تتعلق بقدرة الانسان على التصور والتذكر ، والتخيل ، والشك ، وغيرها من قدرات وملكات تخص العقل .

نقـــد :

رأينا كيف قسم لوك التجربة إلى نوعين هما : حسية تعتمد على الانطباعات الحسية التي تأتي من الخارج ، وتأملية توجد في ذهن الانسان ، وتعني العمليات العقلية التي تتكون منها أفكار نتيجة للتأمل الذاتي ، والمقصود بالعمليات العقلية تلك التي تعتمد على التفكير وتقـــوم على ربط هذه الإحساسات وتكوين أفكار عنها .

ويمثل وجود التجربة الباطنية اختلافاً كبيراً بين معنى التجربة عند لوك ومعناها عند الفلاسفة الحسيين الذين غالوا في اتباع النزعة الحسية ، وذهبوا إلى أن الحـواس هي المصـدر الوحيد للمعرفة من أمثـال توماس هوبز الانجليزي وكونديلك الفرنسي بينما نجد أن لوك قد توسع في معنى الحواس فجعلها تشتمل على عنصري الحس والفكر معاً ، ويجب ملاحظة أن توسعه في مفهوم الأفكار قد دفعه تلقائياً إلى الاقتراب من الاتجاه العقلي الميتافيزيقي الذي سبق أن رفضه وخاصة ما يتعلق بمشكلة الأفكار والمبادىء الفطرية ، وكذلك المعرفة الأولية . وقد أدى به ذلك إلى الاعتراف بفكرة الجوهر الروحي أو المادي الذي تصور وجوده غامضاً وراء مظاهر الأشياء الخارجية ويستحيل إدراكه بالحس بل بالبرهان العقلي .

والأمر الذي لا شك فيه أن لوك قد دفع الانسان إلى تأمل ذاته لمعرفة

كيف يفكر ويحلل ، فأصبحت الذات فى هذه الحالة موضوعاً لنفسها وعلى الرغم من إشارته للافكار الميتافيزيقية ، أو التأمل فانه لم يكن على ثقة كبيرة فيها (١) فقد كانت التجربة الحسية هى مصدر المعرفة عنده .

---

1) Ru‹sell. B. History of Western philosophy Lordon Al'on uuwin Fourth Editi n 1954, p. 633.

(جـ) رفض لوك للأفكار والمبادىء الفطرية :

يعالج لوك فى الجزء الأول من مؤلفه « مقال فى الفهم الانسانى » نظرية الأفكار والمبادىء الفطرية (النظرية والعملية) فيرفضها بشدة مؤكدا على أولوية المعرفة الحسية التجريبية .

وقبل أن نخوض فى معالجة هذه المشكلة يجدر بنا أن نعرض فى عجالة سريعة لعدد من الموضوعات المتعلقة بالمبادىء الفطرية مثل تعريفها وعرض نشأتها التاريخية : ثم موقف لوك منها .

١ — معنى الأفكار الفطرية :

تعنى هذه النظرية فى تاريخ الفكر الفلسفى : أن الانسان يولد وفى عقله مجموعة من الأفكار تمثل أصول تفكيره وسلوكه فى مراحل حياته المختلفة .

٢ — تاريخ النظرية :

لنظرية الأفكار الفطرية تاريخ طويل يرجع إلى عهد اليونان فنجد أفلاطون يذكر فى محاورة « فيدون » Phaedo مسألة خلود النفس وكيف أن النفس أزلية أبدية كانت تحيا فى عالم المثل قبل أن تهبط إلى عالم المحسوسات (مكان الأوهام والأشباح) وهكذا عاشت النفس منذ الأزل فى عالمها حيث عرفت قيم الحق والخير والجمال : كما عرفت معانى الفضيلة والسعادة ، ثم هبطت بعد ذلك من هذا العالم العلوى اترتبط بالجسد موطىء الغرائز والشرور فسجنت فيه ، وحجبت عنها المعارف السابقة ، ومن ثم أصبحت المعرفة عند أفلاطون هى التذكر ، تذكر ما قد عرفته النفس من قبل فى عالم

المثل من حقائق أزلية ثابته ، والتذكر كما يعرفه أفلاطون ليس سوى عملية « لكشف ما قد طواه النسيان بفعل الزمن والإهمال »(١) .

وفى محاورة مينون Meno يذكر أفلاطون أن المعرفة التي حصلتها النفس من قبل فى عالم المثل تتبدى عندما يوجه شخص ما إلى آخر سؤال صحيح فان إجابته ستكون صحيحة ذلك يعنى أن نفسه كانت على علم مسبق بالحقائق والمثل وبذلك يؤكد على وجود الحقائق الأبديه الفطريةفىالإنسان الذى ما أن يوجد حتى توجد معه الروح التي عرفت كل الحقائق الخالدة ؟ وما عليه إلا أن يكتشف ما فى نفسه من قبل .

أما أرسطو الذى كان أكثر واقعية وميلا إلى إستخدام الحواس والتجربة الحسية فى الوصول للمعرفة فقد أكد بدوره على وجود المبادىء العقلية الأولية Apriori التي ليست لها علاقة بتجربة الحس كما تتسم بالضرورة والوضوح الذاتى ولا تحتاج إلى برهان على يقينها(٢) .

وعند أرسطو ترد الفكرة إلى أخرى أعم منها حتى نصل إلى أفكار أكثر عمومية من غيرها ولا نستطيع ردها إلى ما هو أعم منها وهى مبادىء الذاتية Identity والتناقضContradiction والثالث المرفوع Tiers exclu ، وهى

---

١) محاورة فيدون — أفلاطون — محاورات أفلاطون : ت د ذكي نجيب محمود — الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٥ ص ٦٨ .

2) Aristotle. Metaphysics, Book, Chlv p. 125 Translated ly John Warring ton London 1956 Every man's Library No 1000. p. 37.

قبلية أو مبادىء أولى First principles لا يمكن أن يقام على صحتها برهان(١) لا بالقياس ولا بالاستقراء لأنها أولية ، كما تمثل الأساس الأول الذى تبدأ منه برهنتنا على أية معرفة ، لما تتميز به من الضرورة والوضوح الذاتى .

وفى العصور المدرسية إعتمد البحث فى نظرية المعرفة على إبراز ما فيها من مبادىء فطرية طبيعية فاستخدموا منهج القياس لاستخلاص نتائج معينة من مجموعة من البديهيات أو المسلمات مثل المبادىء الرياضية كمبادىء (الكل مساو لمجموع أجزائه ـ أو الكل أكبر من أى جزء من أجزائه) (٢) : وكانت مجموعة المبادىء والمعارف الأوليه لا تخص علم واحد فحسب بل تتعلق بمجموعة العلوم الإنسانية بوجه عام ولقد عرف المسلمون أيضا هـــذه النظرية فذكرها الغزالى فى الرسالة اللدنية كما أرجعها أفلاطونيو كمبردج إلى طبيعة الروح المتسامية غير المادية ـ كما ذكر سمث أما هنرى مور Henry More فقد قال بخلود النفس وبأنها كانت تحيا فى عالم أكثر رقياً وصفاءاً (٣) قبل أن تحل فى الجسد ، وهو يقترب فى هذا التصور من تصور أفلاطون عن خلود النفس وعالم المثل .

وفى القرن السابع عشر نجد ظهورا لنظرية الأفكار الفطرية عند ديكارت

---

1) Ibid.

٢) عزمى اسلام ـ جون لوك ـ دار المعارف بمصر ـ نوابغ الفكر الغربى ـ ١٩٦٤ ص ٢٤ .

٣) نفس المرجع نفس الموضع .

الذى قسم الأفكار فى « التأملات » إلى ثلاثة أنواع فطرية Innées وعرضية Adventices ومصنوعة Factices كما شار بوضوح إلى « الأفكار الفطرية » عندما ذكر أن بعض الأفكار « مفطور فى أى جبلت عليه » والبعض الآخر غريباً عنى أى مستمد من الخارج بينما أن النوع الثالث مكون من تأليفى وإختراعى الخاص ،(٣) وتعد نظرية الحقائق الأبديه عند ديكارت صورة من صور الأفكار الفطرية حيث كان يسميها أحياناً بالمعرفة الحدسية Intuitive التى ندركها مباشرة دون شك فيها ، ودون اللجوء إلى خبراتنا الحسية ، أو مقدماتنا المنطقية (وهذه هى نفس المعرفة التى ذكرها أرسطو باعتبارها إدراك مباشر يقينى) .

ويقول ديكارت عن الحقائق الأبدية أن الله لم يخلق موجوداته الخارجيه فحسب بـــل خلق أيضاً ماهياتها وجعلها كأنها حقائق مخلوقة لا يرجع وجودها لأى قوة عليه ولما كانت الطبيعة عنده لا تنطوى على علل ثانوية فما الذى يحفظ وجود هذه الحقائق ؟ هكذا يتساءل الفيلسوف .

يذهب ديكارت إلى أن الله خلق هذه الحقائق ويحفظ وجودها بالطريقة نفسها التى خلقها بها (١) وتتميز هذه الحقائق بثباتها وأزليتها كارادة الله « كانتميز بحرية مطلقة لا نسأل عنها إذ انه يستحيل على عقولنا المحدودة المتناهية الإحاطة بقدرة الله » (٢)

( ) ديكارت ـ التأملات عثمان أمين ـ التأمل الثالث ـ ص ٢٩

(1) Descartes Lemonde, Oeuvres A t, tome 10, Paris 1909 chvll p 37

(2) Lettre à Mersenne du 27 Mai 1630 Correspondance. A - M Librairie Felix Alcan, Paris 1936 Tome P 135

والحقائق الأبدية لا تستمد وجودها من الله عليا بحسب مبدأ الضرورة ذلك لحرية فعل الخلق الإلهى ، كما أنها ليست صادرة منه بالضرورة صدوراً واعياً لأنها ليست جزء منه ولا تصدر عنه كما تصدر الاشعة من الشمس على ماذكر أفلوطين Platon إذ أن ما يصدر عن الله على هذا النحو يكون صادرا بالضرورة فهو ما يخضع له كل شيء وكل قضاء وقدر .

ويتساءل ديكارت وهو يعرض لنظريته عن مدى إعتماد هذه الحقائق فى وجودها على الله فيذكر أن وجودها يتوقف على إرادة الخالق : والقول بأنها لا تحتاج إليه فى وجودها إنما يجعل من تصورنا لها على حد تعبير الفيلسوف كتصور اليونان لجوبيتر Jupiter وساتيرن Saturn وهذا يعنى إخضاع الارادة الإلهية للقضاء والقدر وفى هذا إستحالة لأن هذه الحقائق تخضع فى وجودها لإرادة الله مثل سائر المخلوقات » (١) .

وتتمثل الحقائق الأبدية فى البديهيات الرياضية والمنطقية وكذلك حقائق العالم الطبيعى مثل قوانين الحركة التى خلقها الله وضمن ثباتها إلى الأبد ، كما تتمثل فيما منحه الله للعقول منذ الميلاد من قدرة على معرفة الأفكار . والمبادىء الفطرية السليمة . ولا يوجد بين التصورين سوى فارق بسيط هو أن ديكارت يرجع المبادىء الفطرية فى الانسان إلى مصدر إلهى خالد بينما يذكر أرسطو إستعداد العقل الطبيعى دون أية إشارة إلى مصدر إلهى .

وتمتد جذور نظرية الحقائق الأبدية (الأفكار الفطرية) فنجدها تظهر بصورة أخرى فى القرن الثامن عشر عند الفيلسوف الألمانى النقدى كانت

(1) Lettreà Mersenne du 15 Avril 1630 A' M. p135.

E Ka t الذى نادى بنظرية الأفكار القبلية التى تعنى أن بالعقل أو بطبيعته ذاتها توجد شروط ضرورية لإدراك الاشياء ، وفهـــم ذواتنا والعالم الخارجى .

ويرى كانت إنه ليس بالضرورة أن تكون جميع معارفنا مستخلصة من التجربه Experience ، فهناك معرفة مستقلة عن التجربة وغير مرتبطة أصلا بأى إنطباع حسى هى المعرفة الأولية الخالصةالمتقدمة على كل تجربة'apriori' وهو يفرق بين هذه المعرفة الخالصة وبين المعرفة التجريبية التى يقول عنها إنها لاحقة أو متأخرة a posteriori (١) .

والمعرفة الأولية هى الشروط أو الأسس لكل معرفةموضوعيةobj ctive وهذه الشروط أوالمبادىء القبلية تعد أشبه بطبيعة العقل التى لادخل للحس فيها ، فهى سابقة عليه ، وأساسية له ، وتوجد فى كل إنسان منذ ميلاده . كامنة فيه بحكم تكوين عقله الطبيعى فى شكل تصورات لاتظهر إلا عند مواجهة العالم الخارجى كمقولات الجوهر والعلية والضرورة والاستحالة والامكان وغير ذلك بعد أن عرضنا للتطور التاريخى لنشأة نظرية الافكار الفطرية بداية من أفلاطون وأرسطو مروراً بالقرنين السابع عشر والثامن عشر عند ديكارت وكانت تنتهى إلى نظريه الحدس Intuition التى ذكرها لوك فى فلسفته ، وتتعلق بصورة مابنظرية الافكار والمبادىء الفطريه التى رفضها كما نفد موقف القائلين بها وخاصه ديكارت وليبنتز فيذكر فى «المقال» :

---

(١) زكريا ابراهيم . كانت أو الفلسفة النقدية ـ مكتبة مصر ـ الطبعة الثانية ص٦٣ .

« أن الكثيرين يعتقدون فى وجود الأفكار الفطرية ولو صح ذلك لاستطاع البدائيون والاطفال والمجانين وعامة الناس( ) أن يعرفوا قانون الذاتية أو التناقض، لكننا نرى أن هؤلاء جميعا يفكرون بطريقة سليمة بالرغم من جهلهم تماما بهذه القوانين التي تؤدى إلى سلامة الفكر ، لذلك فالناس تستطيع أن تكتسب المعارف باستخدام قدرتها الطبيعية بدون حاجة إلى هذه المبادىء الأولية والقوانين الأساسية لكى تتم معرفتهم بالعالم .(٢)

ذلك يعنى أن جميع الأفكار التي تتكون فى الذهن يجب أن ترجع إلى الخبرة الحسية أو التجربة Experience فعقل الانسان عند الميلاد يكون — حسب تصور لوك — كأنه صفحة بيضاء خالية من أى أفكار ، أو معانى ثم يبدأ بعد ذلك فى تحصيل معرفته عن العالم وتكوين أفكار عنه ، وهذا يعنى أن الحس سابق على الفكر إذ أنه لاتوجد فى العقل فكرة واحده لايكون مصدرها حسى (٣) لذلك فلا قيمة لمعارفنا الأولية ومبادئنا الفطرية مادام أن حصولنا على المعارف الحقيقية يتوقف على التجربة والخبره الحسية .

(1) AN Essay, Book 1 , Ch II, Sec 5, p65.

(2) Ibid.

(3) AN Essay : Book 1, Ch IB, Sec 3, p.60.

٣ ـ حجج لوك فى رفض المعرفة الفطرية :

وسوف نعرض لرفض لوك وهجومه على مبدأ الأفكار الفطرية الذى عرض تفاصيله باثارة وإحكام فى الكتاب الأول من « المقال فى الفهم الانسانى » حيث يتعرض لنقد الأفكار الفطرية . ثم يعرض لحجج دعاتها ، ويحاول الرد عليها ودحضها .

يعرض لوك وهو يرفض الأفكار والمبادىء الفطرية النظرية Speculative لحجتين يشمل الرد عليها موقفه من المعرفة الفطرية الأولى : هى حجة الإجماع والثانية هى حجة إستخدام العقل.

أولا : حجة الإجماع General assent

يعرض لوك لهذه الحجة ، ثم يرد عليها ، وينقدها ؛ وترى هذه الحجة إلى أنه ليس هناك شىء مسلم به أكثر من القول بوجود مبادىء معينة ـ نظرية وعملية يتفق عليها جميع الناس ، ويتصورونها مستمرة وأبدية حملتها أرواحهم عندما أتت إلى العالم » [1] لذلك يجمع كثيرون من الناس على المبـــادىء والأفكار ويتفقوا فيما بينهم عليها ، لكن لوك يرفض هذه الحجة وينقدها بدعوى أن مسألة إجماع الناس [2] على مبادىء أو أفكار معينة أو إتفاقهم جميعاً على

1) AN Essay Book 1, Ch 11, Sec 2, p 60.

2) AN Essay B, Ch II, Sec 3, p. 39.

وهذا نص لوك :

(UniVersal Consent Proves nothing innate, this argument, —

بعض منها لا يعنى أنها فطرية أو أنهم ولدوا وقد حملتها أرواحهم وأتت بها من عالم آخر إلى عالمنا .

ويسوق لنا لوك مثالا على ذلك ببعض المبادىء التى إكتسبها الناس فى حين أنهم ظنوا أنها فطرية غير مكتسبة ويجملهـا فى نوعـين نظرية SpecuLative ، وعملية Practical ويمثل الأفكار النظرية مبدأى فكرة الذاتية وعدم التناقض وهى مبادىء أرسطية كما يناقش لوك فى نفس الفصل من المقال معنى كون الشىء هو نفسه وألا يكون فى نفس الوقت [1] ، فهذه المبادىء أساسية ومعروفة لدى الجميع فلا يصح لأحد أن يناقشها أو يجادل فيها فهى بينة الوضوح بذاتها ، ويجب أن تجمع عليها جميع الآراء .

رأينا من قبل أن لوك قد أكد فى المقال على أن النزعة الحسية هى المصدر الوحيد للمعرفة بيد أنه مع ذلك يقبل بعض المبادىء النظرية مثل المسلمات أو البديهيات Axioms لكن هذه المبادىء لا تتصف بالأوليه أى بالسبق على التجربة بمعناها الأفلاطونى أو الديكارتى بل هى ملازمة للتجربة

= draw From universal Consent has this misFortune in it That if it Were true in matter of Fact that there were Certain truths Where in all mankind agreed, it would not Prove them innate if there Can be any other way Shown how men may Come to that universal agreement in the Things they do Consent in Which I presume may be done) Essay.

1) Ibid.

وتمثل وظيفة العقل التي يدرك عن طريقها وضوح الأفكار وصدقها بقوة الحدس والبرهان مثل فكرة الذاتية التي تعد أساس العمليات العقلية الأخرى وقد إفترض لوك فطريتها لما تتميز به من وضوح وتميز .

رفض الأفكار الفطرية (النظرية والعملية)

هاجم لوك دعاة القول بالأفكار والمبادىء الفطرية ولم يورد سوى اسم اللورد هيربرت شيربورى Lord Herbert Cherbury الذى ذكر خمسة مبادىء معروفة للجميع معرفة فطرية من بينها عبادة الله ضمنها كتابه « فى الحقيقة » Deveritate مما تأدى بالكثيرين إلى تفسير هجوم لوك على انه ضد شيربورى .

وتذكر بعض الآراء أنه كان يقصد بنقده أفلاطونى كيمبردج (*) Cambridge Platenists دحض ما ظهر فى فلسفات البعض منهم من إيمان بالمعرفة الفطريه مثل هنرى مور، بينما يذهب الرأى الآخر إلى أن رجال الجامعات كانوا هم المقصودون بهذا النقد ، ورأى فولتير ان لوك كان يهاجم ديكارت فى المقام الأول،غير أن الإحتمال الغالب لهذا النقد كان موجها إلى أفلاطونى كيمبردج (١) سواء فى جانبه النظرى أو العمل .

---

(١) أفلاطونيو كيمبردج :

مجموعة من علماء اللاهوت الفلسفى الانجليز كانوا يتخذون كيمبردج مركزاً لهم كما غلبت النزعة التطهرية على تفكيرهم، إشتغلوا بالتأليف والوعظ فى أواخر القرن التاسع عشر ، من أشهرهم رالف كدوث ،وريتشارد كبرلان =

وبعد أن يذكر لوك هذه الافكار الأولية البديهية بالنسبة للعقول يشير إلى أنه بالرغم من أولية هذه المبادىء وضرورتها إلا أن هناك عقول كثيرة لاتعرفها كالأطفال Children والمتوهين idiots ولما كان هؤلاء يمثلون نسبة معينة من مجموع الآراء ، ولما كانت الافكار الفطرية تتسم بالعمومية فان عدم معرفة هؤلاء بها يعد سببا كافيا لرفض هذه الحجة ، إذ لو كانت الافكار الفطرية والمبادىء عامة وشائعة وضرورية لكانت قد عرفت بالنسبة لهؤلاء أيضا ، وإلا فما الذى يفسر جهل البعض بها .

يقرر لوك أنه لاحجة لمن ينادون بالمبادىء الفطرية مادام أن هناك عدد

= وهنرى مور وبنيامين وتشكوت ، وجون شميث ، وجوزيف جلانفيل .

كانوا يناصرون في حماسة فاعلية العقل ، ووجود الروح غير المادية وجوداً حقيقياً فاشتد هجومهم على فلسفة هوبز الحسية ، ومما يذكر عنهم معارضتهم له فى أن تكون السلطة الإلهية أو السياسية هى مصدر الالزام الخلقى ، فقد كان الصواب والخطأ الاخلاقيان وكذلك الخير والشر أموراً أبدية ثابتة ، وليست نتيجة لأية أوامر أو مراسيم .

نص لوك :

(1) AN Essay: Book, Ch II, Sec 5 p 40

«For First, It is evident that all Children and idiots have not the Least Comprehension or thongt of them. and the want of that is enough to destroy that universal assent Which must needs be the necessary Concomitant of all innate truths».

من الناس لا يعلمون عنها شيئا ولا يستخدمونها بعقولهم نظريا يقول معبراً . عن جهل بعض الناس بالقوانين النظرية : « أنني أتصور أن هذه المبادىء لاتلقى الموافقة الاجماعية من حيث أنها ليست معروفة لعدد كبير من الناس »[1] وإن صح وقيل أن تلك المبادىء مطبوعة ومفطورة فى العقل منذ الازل ، فما الذى يجعل هؤلاء الناس (الاطفال ـ المعتوهون) غير شاعرين بها [2] ، وهل من المعقول أن يتضمن العقل ثمة مبادىء لا يشعر المرء بها أو يدركها إدراكا صحيحاً ؟

إن القول بالفكرة المفطورة أو المطبوعة فى العقل ثم القول بعـــدم إدراك العقل لها إنما تعنى تناقضا صحيحا وخللا فى نظرية دعاة الأفكار الفطرية .

نص لوك .

(1) AN Essay Book 1, ch 1, Sec 4. p. 40.

« But yet I take Liberty to say that these Propositions are so far From having an universal assent that there are a great Part of mankind to whom they are not So much as known ».

(2) Ibid ,

ثانياً : حجة إستخدام العقل :

ترى هذه الحجة إلى أن الناس تعرف مجموعة من المبادىء والامور الفطرية وتوافق عليها إذا ما بدأو فى إستخدام عقولهم ، ويفهم من هذه الحجة وجود الافكار بالقوة فى العقول وأنها لاتظهر بالفعل إلا عندما يبدأون فى فى إستخدام عقولهم فتخرج هذه الافكار من حالة الكمون (القوة) إلى حالة الفعل . ويرى لوك أن هذة الحجة تعنى أمرين لاثالث لهما :

الأمر الأول :

هو أن ظهور الافكار والمبادىء الفطرية موقوف على إستخدام الإنسان لعقله فيدرك هذه المبادىء الأولى .

والامر الثانى :

يعنى أن معرفة هذه المبادىء الاولى لن يتم ما لم يستخدم الانسان عقله (1) .

لكن لوك يرفض هذين الاحتمالين مبرراً رفضه بفرض أن الانسان لو استطاع أن يكتشف بعض القوانين الضرورية الأولية باستخدام عقله ، ثم قام بعد ذلك باستنتاج بعض النظريات الملحقة بهذه القوانين ، فانه لن يكون ثمة فرق بين القوانين والمبادىء الفطرية . وبين إستنتاجاتها التالية من حيث أن الاولى والثانية قد نتجت عن طريق اكتشاف العقل ، وحسن إستخدامه لوظيفته . وهذا من دواعى الخطأ . وقد عبر لوك عن هذا الرأى فى نص يقول فيه « أنه لو

---

(1) AN Essay Book. ch II. .p 40.

فرض واكتشف الانسان بعقله بعض المبادىء الرياضية الأولية ـ التي يقولون بفطريتها ـ مثل أن الشيء هو هو وأنه لا يساوى إلا نفسه ثم استنتج بعد ذلك بعض نظريات الرياضة، فان ذلك يعنى اكتشاف الانسان لما كان مفطوراً فى عقله من مبادىء ونظريات ما دامت أن وظيفة العقل هى اكتشاف ما كن من نظريات ومبادىء منطورة (موجودة بالقوة) ، ذلك يعنى أنه لا إختلاف بين مبادىء الرياضة الاولية ، وبين النظريات المستنتجة منها من حيث أن كليهما فطرى وهذا خطأ جسيم لأن الإختلاف واضح بينهما » (1).

يدلل لوك على وجهة نظره من جهة أخرى فيرى أنه لو كانت المبادىء مطبوعة فى الانسان قبل استخدام عقله فهل يعنى ذلك أن تظل تلك الأفكار التي عرفت سرا من قبل تظل فى ذهنه دائما سواء كانت فطرية أم مكتسبة ؟

يرى لوك أن ذلك لا يحدث لأن الافكار التي تظهر وتصبح محل تفكير هى التي يفكر فيها الإنسان فحسب بينما تظل بقية الأفكار فى دائرة الظل

---

(1) AN Essay Book, ch, Soc 8 p· 42 - 43.

نص لوك :

«that by the use of reason We are capable to a certain Knowledge, of and assent to them and by this means there will be no differenco between the maxims of the mothematicians and theorems they deducé from them, all must be equally allowed innate They being all discoveries made by the use of Reason and truths that a rational Creature may Certainty Cone to Know ifhe app'y his thoughts rightly that wag».

حيث يمكن استرجاعها بالتذكر فالإنسان ينسى بعض الافكار وهو غير عالم بها أصلا فجأة يتذكرها ، وهنا يصبح موقف لوك قلقاً فى مسألة علم الانسان بالحقائق ولاعلمه فى نفس الوقت .

كان رفض لوك للافكار والمبادىء الفطرية ، وتأكيده على المعرفة الحسية وأوليتها من بين العوامل التى دفعته لإبراز وظيفة العقل وسط هذه الاتجاهات المتعددة باعتبار أن هذه الوظيفة هى سند المعرفة التجريبية ، وقوام نظرية المعرفة عنده ويعبر لوك عن ذلك بقوله : « ان من يلاحظ العمليات التى يقوم بها العقل يجد أن استعداد الانسان الفعلى لقبول بعض الحقائق والموافقة عليها . يرجع الى الوظيفة الاول للعقل ومعنى ذلك أنها لاترجع لاية انطباعات أولية مفطورة أو لاية اكتشافات للعقل عند إستخدامه »[1]

ومن تحليل هذا النص نجد أن لوك يذكر أمرين هامين فى مسألة المعرفة .

أولهما : أن معرفة الانسان لاتتم عن طريق الأفكار الفطرية أو المبادىء المفطورة (المطبوعة) داخل العقل .

ثانيهما : ان معرفة الإنسان لاتتم عن طريق استخدام العقل واكتشاف ما بداخله من أفكار ضرورية أولية توجد فيه بالقوة ثم تخرج حال استخدامه إلى حيز الفعل .

بهذه الكيفية ينفى لوك الافكار المفطورة ، كما ينفى مسألة استخدام العقل

---

(1) AN Essay Book 1, ch III, sec 1, p. 92.

لإكتشاف الحقائق ويؤكد على وظيفة العقل تلك العملية الايجابية ـ الباطنية التي ترتكز عليها سائر الإنطباعات الحسية والمدركات التي يحصلها الإنسان عن طريق الخبرة الحسية ويقصد بها لوك « الحدس أو التأمل الباطني » أما هجومه على الأفكار الفطرية العملية فهي الخاصة بالأخلاق والدين ويسوق لنا مثالا عليها بأحد المبادىء التي ذكرها هيربرت شيربوري من ضمن مبادىء عملية خمسة ضمنها كتابه « في الحقيقة » يذكر فيها أنه تجب عبادة الله « God isto be W. rsh.pped » والمشكلة التي يثيرها لوك تتعلق بمسألة العبادة من حيث أنها ليست فكرة مفطورة في النفوس .

* تصور وجود الله (الفطرى) عند ديكارت .

لقد بدأ ديكارت ميتافيزيقاه بتأمل الذات ، ومحاولة إستبطانها وتمثلت هذه المحاولة في البحث عن فكرة تفوق حقيقتها الموضوعية كل ما فيه ، بحيث لا يكون هو علة هذه الفكرة ، ولما وجد ديكارت بين أفكاره فكرة الله فقد أيقن أنه ليس وحيداً في هذا العالم .

ويتساءل ديكارت عن مميزات أو خصائص هذه الفكرة التي تنطوى عليها ذاته أي فكرة الموجود الكامل اللامتناه ـ وعن مصدرها ، فيرى أنها فكرة تمتاز بالوضوح . والتميز كما تحوى كل ما يتصور من كمال أما مصدرهذه الفكرة فان ديكارت يتساءل بصددها كثيراً يقول عن مصدرها : هل استنبطتها من نفسي ؟ ويجيب : ولكنني موجود بشك ويتردد ولما كان الشك دليل

النقص والعلم خير منه . فكيف اذن يستطيع إستحداث فكرة الكامل وهو ناقص ؟ .

هل يقول أنها جاءته من الأشياء الخارجية ؟ لكنها لاتخطر له كما تخطر له أفكار المحسوسات . والعالم الخارجي ناقص مؤلف من أشياء محدودة . وعلى فرض تمكنه من جمع فكرة إلى أخرى فانه لن يستطيع من مجموع هذه الافكار الناقصة أن يؤلف فكرة عن هذا الكائن اللامتناهي :

يذهب ديكارت الى أن هذه الفكرة تتميز بالبساطة ، ولا تنطوى على أن تركيب أو تأليف لأنها تمثل موجوداً واحداً حاصلا على جميع الكمالات ، بحيث أنه لا يستطيع أن ينقص أو يزيد فيها شيئا .

ولما كانت هذه الفكرة ليست حادثة ، أومصطنعة فهى لذلك فطرية بسيطة أولية .

وتتمثل الأفكار البسيطة الأولية فى الفكر الرياضى فكل ما يتصور بوضوح أنه حاصل على ماهية ما ، فهو حاصل لها ، أو بمعنى آخر كل محمول متضمن في فكرة شيء ما فهو صادق بدون شك على هذا الشيء ذاته ، ومثال ذلك على ما يقـــول « ديكارت » . « أننا لو تصورنا شكلا هندسيا كالمثلث فانني – فى هذه الحالة – أكون متصورا لماهية ثابتة ليست لها علاقة بذهني ، ويتبع ذلك ألا يكون لى الحق فى أن أزيد عليها ، أو أنتقص منها ، ولما كنت أتصور مثلثا فان ثمة فكرة تتبادر إلى ذهني عنه وهي أن زواياه تساوى قائمتين ، وهذا ما يحدث بالنسبة لأية ماهية أخرى وبالعودة الى الى فكرة الله – الكائن الكامل اللامتناهي – وجدت أن فكرته تتضمن وجوده

بالضرورة من حيث أن الوجود كمال . وإذا كان الكامل غير موجود لكان ناقصا مفتقرا إلى موجد » وهكذا يتضح لنا مما سبق أن وجود الله لازم من فكرته ذاتها أى من مجرد تعريفه ـ وليس فى هذا القول أى وجه خطأ فلقد إعتادت الناس أن تميز حين النظر للاشياء بين الوجود والماهية ، أما فى حالة وجود الله فكيف يتسنى لهم فصل الوجود عن الماهية؟ مع العلم بأن الكامل على الاطلاق هو الذى تحصل ماهيته على جميع الكمالات .

وهكذا تصبح فكرة الكائن اللامتناهى هى الفكرة التى تتضمن الوجود محمولا ذاتيا بما يستحيل مع ذلك فصله عن الماهية ـ كما لا يمكن فصل فكرة الوادى عن فكرة الجبل على حد تعبير ديكارت . من خلال عرض الفكرة السابقة يمكن تلمس دليل ديكارت الأول على وجود الله وهو ـ كما سبق أن فسرناه ـ مأخوذ من دليل القديس « أنسلم » بعد أن أضاف إليه «ديكارت» فكرة أصالة وفطرية فكرة الله. ومن هذا الدليل الأول نرى أن ديكارت يحاول دفع النفس إلى تأمل ذاتها وسبر أغوار أفكارها . حتى يتسنى لها الوصول إلى فكرة الله . كما أنه يحاول تفسيرها من خلال حقيقتها الموضوعية ـ أى من جهة موضوعها الذى تمثله فحسب ـ كما يرى أن هذه الفكرة معروفة للنفس بصورة طبيعية ويكفى لصدورها أن يحاول الانسان التفكير فى ذاته ، وما تنطوى عليه من نقص وشك وتناهى .

وعلى هذا النحو يقودنا التفكير المباشر فى النفس وما تنطوى عليه من رفض وشك إلى التوصل إلى فكرة وجود الله . فتصبح فكرة هذا الكائن ماثلة بصورة طبيعية مع فكرة النفس عن ذاتها ووجودها ومرتبطة بها مباشرة .

ويتبع هذا الدليل الأول على وجود الله دليلين آخرين محورهما ملاحظة النفس أيضا ، والتفكير فيها . فى الدليل الثانى يحاول الفيلسوف أن يسبر غور نفسه لكى يصل إلى علة وجوده وحفظه فى كل لحظة من لحظات الزمن .

ويرى ديكارت أنه لما كان هو ذاته ليس علة وجوده فينبغي عليه البحث فى هذه العلة ، إذ لا يمكن أن يثبت وجوده . أو يبقى ويستمر دون علة ، وحيث أنه موجود في الزمن (وهذا الوجود الزمنى مكون من لحظات متتابعة منفصلة الواحده منها عن الاخرى موجوده فى اللحظة الحاضرة لا الحالية كان من الممكن ألا يكون لانه يستتبع ضرورة وجودة فى لحظة تالية، ومن جهة أخرى فان والديه ليسا هما سبب وجوده ــ أنهما ليس أكثر من منا سبتين لميلاده فحسب . ولايقدران على حفظه لحظة واحدة بعد هذا الميلاد. ثم لاداعى للبحث عن علة وجودهما حتى لا ينطلق إلى سلسلة من المعلولات ، والعلل يقول الفيلسوف : « فيجب أن نتوقف عن البحث فى سبب وجودى (فى لحظة وجودى) الآن وحسب ويتساءل فى التأمل الثالث :« وانى أتساءل اذن ممن استفذت وجودى ؟ قد أكون استفذته من نفسى . أو من أبوى . أو من عالل أخرى أقل من الله كمالا فليس يمكن أن نتصور شيئا أكمل منه ، بل ولا كفؤا له » (١) .

أما الدليل الثانى على وجود الله ميتافيزيقيا فيقوم على وجود النفس أو تأمل وجودها وهو فى ذلك يشبه الدليل الأول ــ فيقين الفيلســـوف

---

(١) ديكارت : عثمان أمين ، التأمل الثالث . ص١٥٧ .

.جوده ، وبما ينطوى عليه هذا الوجود أو هذه الذات ـ من كمال و نقص، من حقيقة وخطأ . من وجود وعدم ، إنما يعد إثباتاً لوجـــود الله الكامل الحق المتسامى اللامتناهى . وعلى هذا النحـو الذى يكتشف فيه الفيلسوف احتواء ذاته أو وجوده على هذه الفكرة يصل إلى الدليل الثانى على وجود الله التام الكامل اليقينى . أما الدليل الثالث على الوجود الإلهى فقد توصل ديكارت عن طريق استخدام التفكير الرياضى ، والتوصل منه إلى يقـــين بوجود الله مماثل ليقين الرياضة . على إعتبار أن جميع الأفكار بما فيها فكرة الكائن الكامل . هى أفكار تتعلق بطبائـــع ثابتة حقيقية . أى بطبائع تتميز بالضرورة الداخلية ، فنحن نجد أن الأفكار الرياضية تمايز واحدة منها عن الأخرى بطبيعتها الخاصة ، وكذلك الحال بالنسبة لفكرة الـكائن الـكامل فهى فكرة لطبيعة ثابتة حقيقية ، لها ضرورة معينة خاصة تميزها عن الطبائع الرياضية فما هى إذن الفكرة التى تميز طبيعة، وضرورة هذا الكائن الكامل الذى لدينا فكرة عنه عن جميع الطبائع الرياضية التى لدينا عن كل واحدة منها فكرة واضحة متميزة .

إن ديكارت يرى أن الطبيعة التى تمايز بها فكرة الكائن الكامل أسمى وأعظم من أى طبيعة تتعلق بالأفكار الرياضية ، فهى فكرة تتميز تماما عن غيرها من الأفكار الرياضية لأن ماهيتها لا تنفصل عن وجودها ، انها فكرة تقتضى الماهية و الوجود وهذا ما لا يحدث بالنسبة لأية أفكار أخرى .

وجدير بالذكر أن لهذه الفكرة ضرورة تفرض وجود موضوعها علينا تماما كما يكون من الضرورى أن نقول عن تصور المثلث أنه شكل هندسى ذو ثلاث زوايا متساوية فى مجموعها لقائمتين فنحن عندما نتصـور وجـود

المثلث يتقرر علينا بالضرورة الاعتراف بأن زواياه مساوية لقائمتين ، وكذلك الحال بالنسبة لفكرة الكائن الكامل ، فالتفكير فيه يعني التفكير في ماهيته ووجوده في نفس الوقت ، فالكائن اللامتناهي فكرة مفطورة عليها النفس بطبيعتها وضروريتها ·

ويتعارض ،موقف لوك في إنكار فطرية فكرة الله مع ما ذكره ديكارت في تأملاته عن أن هذه الفكرة مفطورة في نفوسنا يقول ديكارت : «ما كنت أعرف أني كائن ناقص ومتناه لو لم تكن بداخلي فكرة « الكامل » أو « اللامتناهي » وبديهي أنني لم أستطيع بنفسي أن أخلق تلك الفكرة . . » (١)

ويظهر من هذا النص إعتراف ديكارت بفطرية فكرة وجود الله التي رفضها لوك ، والتي يرى أنها فكرة تبدو بعيدة التصور حتى مع من يدركونها·

وبعد معرفتنا بوجود أشخاص مؤمنين وآخرين على علم بالله غير مدركين له أيصبح لنا بعد ذلك أن نقول أن فكرته مفطورة في النفوس؟ ثم يعود لوك ويذكر إنه لما كانت الأفكار الفطرية النظرية غير مفطورة في النفس ، أيضا أسوة ببقية الأفكار النظرية والعملية ، وحيث أن فكرتي الذاتية Identity والإستحالة Impossibility فكرتان غير فطريتين لأنهما غير معروفتين للأطفال والمعتوهين فيلزم عن ذلك أن فكرة وجود الله تصبح غير فطرية كذلك .

---

1) Descartes, Médit A, t, Paris 1904, Tomeg 9 Médit 3, pp. 40 - 41.

* تعليـق :

إنتهينا من قبل إلى أن لوك قد رفض رفضا تاما وجود أفكار أو مبادىء فطرية نظرية ، أو عملية ـ فعلى المستوى النظرى رفض أن تكون المبادىء التى ذكرها أرسطو مثل مبدأ الذاتية ، وعـدم التناقض فطرية وأولية فى العقول وحجته فى ذلك أن الإجماع غير متفق على معرفتها بالنظر إلى حالات الطفولة ، وضعاف العقول ، فكيف إذن تكون الأفكار فطرية فى العقول ثم نجدها تظهر عند البعض دون البعض الآخر من الناس . وحتى على فرض ظهورها حال إستخدام الإنسان لملكة العقل ، فإن هذا القول يعنى أيضاً عدم ظهورها عند الطفل لعجزه عن إكتشافها فى ذاته ، وأنه سوف ينتظر حتى يبلغ سنا يستطيع فيها إستخدام عقله والاسترشاد بمبادئه يتساءل لوك كيف تعرف هذه المبادىء وهى فطرية بعد إستخدام الإنسان لعقله ؟ وكيف تكون هذه المبادىء مفطورة ثم لا يشعر بها أو لا يدركها فى ذاته كيف يحدث ذلك ؟

ثم يعود ويرفض على المستوى العملى فكرة عبادة الله وفطريتها بدعوى وجود الملحدين ، وبهذه الكيفية يضع لوك فى إستهلال مؤلفه « المقـــال » تساؤلات كثيرة تتميز بالإثارة والبراعة ، ثم يوجه الهجوم والنقد إلى نظريتى الأفكار الفطرية والعملية معا [1] منكرا وجود أفكار أو معارف فطرية

---

١) عرض لوك لهجومه ونقده المثير فى مؤلفه « مقالة فى الفهم الإنسانى » فى الكتاب الأول فى المواضع التالية :

V II, Ch. I – II – III P. 38 — 118 —

— No Innate speculative Principles. =

يتضمنها العقل الإنسانى ، ومؤيداً للمعرفة المكتسبة عن طريق التجربة والخبرة الحسية .

(د) الخبرة الحسية والتجربه مصدر المعرفة الأولى :

يذهب لوك إلى أن بوسع الإنسان التوصل إلى معرفة الأشياء الموجودة فى العالم المادى عن طريق الإستنتاج ، غير أن هذا لا يبدأ من فراغ ، بل لابد من وجود قاعدة أساسية تتكون عليها هذه الإستنتاجات المتصلة ، ويرجع لوك هذه القاعدة إلى التجربة أو الخبرة الحسية [1] .

والإنسان فى تصوره يولد بعقل أشبه بالصفحة البيضاء الخالية من أى معانى أولية أو أى أفكار فطرية ثم يبدأ بعد ذلك فى جمع المعرفة عن طريق الإحساس بالعالم المادى فتبدأ الانطباعات الحسية تنقش فى العقل المعارف والمعلومات عن العالم الخارجى ، وبذلك تتكون الأفكار وتصبح الخبرة الحسية هى المعين الأول الذى يستقى منه العقل أفكاره ، ومن ثم يستحيل أن نسأل شخصاً لا يحس متى بدأ يفكر ، يقول لوك : « لو سألنا شخصاً عن آخر متى بدأ يفكر فإن إجابته سوف تكون عندما بدأ يحس » [2] .

= – No Innate Practical Principles – and other.
Proofs against Innate Principles.

John Locke – AN Essay Concerning Human understanding Collated and annotated by , Alexander Campell Fraser intwo Volumes — New York 1959.

1) Ibid p. 140.

2) AN Essay, Book II, Ch. I. Sec 23 p. 141.

(هـ) الأفكار عند لوك بين تجربة الحس ، وحدس الأفكار الأولى :

رأينا مما سبق كيف أنكر لوك وجود المعارف الفطرية ، وكيف رد المعرفة إلى الحس والتجربة التي تسهم في تكوين الأفكار داخل العقل . وعلى الرغم من ايمانه بالمعرفة الصادرة عن التجربة الحسية بيد أنه قد ذكر — في ذات الوقت — وجود معرفة حدسية برهانية [1] أطلق عليها إسم المبادىء الأولى Maxims ، تبعد عن مجال العلم والتجربة ، وتتميز بالوضوح الذاتي ولا تحتاج للتدليل على صحتها كفكرة الذاتية ، التي تعد مبدأ أساسيا ترتكز عليه جميع العمليات المعرفية فكيف يحدث ذلك ؟ إنكاره المعرفة الفطرية ، ثم ذكره لبعض مبادىء أولية في العقل ، شديدة البداهة حتى لتبدو كأنها فطرية ، وتأكيده على أنها من أول العمليات التي يقوم بها العقل [2] . بعد أن يزود بالإحساسات والأفكار .

في ضوء هذا المفهوم لقدرات العقل علي تكييف إحساساته . وجعلها ملائمة لتكوين أفكار صحيحة ، يثبت لوك وجود قدرات مثل مبدأ الذاتية الواضح بذاته ، والذى يدخل ضمن وظائف العقل وعملياته الأولية ، والذاتية هنا ليست مبدأ راسخا ، وموجودا في العقل من قبل بقدر ما هو فعل وظيفي

= نص لوك :

« IF it shall be demand then, when a man begins to has any sensation. For, since there appear not to be any have any ideas, I think the true answer is when to first ideas in the mind before the senses have Conveyed any in ».

1) Ibid. B IV Ch. IX Sec 2 p.

2) AN Essay B IV. ch. I Sec 4 p: 167.

يستطيع العقل به الأمور ويكتشف معطيات العالم الحسي ونحن من جهة أخرى نرى أن لوك يرفض الأفكار برمتها . فكيف يقع في هذا التناقض فيعود لإثباتها بعد ذلك فيما أسماه بالمعرفة الحدسية أو البرهانية .

إن لوك يبدأ بمشكلة مذهبه الأساسية — الأفكار الفطرية — فيحاول إنكارها ونقدها حتى يتسنى له إقامة مذهبه الحسي التجريبي بنفي كل ما هو فطري والتأكيد على ما هو مكتسب ، وإقامة حججه ومبرراته في قوة ، غير أنه يعود بعد ذلك ويذكر المعرفة الأولى الحدسية .

ومسألة رفض الأفكار وتأييدها عرف جرى عليه تاريخ الفكر الفلسفي فإذا كان لوك قد رفض الأفكار الفطرية كي يفسح مجالا أمام الأفكار المستمدة من الحواس والتجربة فقد عاد بعد ذلك ووضع المعرفة الحدسية كلبنة أساسية في بنائه المعرفي ، وهي قريبة من المعرفة الفطرية فتظهر المعرفة العقلية وهي تستند على دعامتين خارجية وداخلية ، تجريبية في الواقع وعقلية في الذهن ، حسية وحدسية .

إن مذهب لوك المعرفي يعتمد على معطيات الحس ، غير أنه يرتكز على المعرفة الأولية السابقة التي كانت مطبوعة في العقل ، والتي تلقتها الروح وأتت بها إلى هذا العالم . هكذا يشير في « مقاله » . إن نظريته في المعرفة قد قامت على مصدرين هامين هما المصدر التجريبي الخارجي ، والمصدر الحدسي الباطني ومهما يذكر لوك من مبررات إستخدامه للمعـــرفة الأولية الحدسية سواء إعتبرها وظيفة عقلية أو غير ذلك فإن ذلك لايبرر لجوءه إليهـا في تأسيس بنائه المعرفي ، فرفض لوك للمبادىء والافكار الفطرية لا يعني بأية حال أنه فرغ عقله منها ، أو أنه جرد بناء المعرفة من قيمة الحدس الكبرى ، إن

ديكارت قد رفض الأحكام الصادرة عن الحواس والأوهام والخيال حتى بلغ به الأمر إلى حد تصور إنكار جسده في لحظة من لحظات التأمل ، لكي يتسنى له إثبات ذاته التي تتميز بالفكر في عرضه للكوجتيو « أنا أفكر إذن فأنا موجود » ، ولكي يثبت أن الفكر سابق على المادة بكل أنواعها حتى يتمكن في النهاية من قبول أحكام العقل منزهه خالصة واضحة بذاتها بينما ، أن لوك قد رفض الأخذ بأية معرفة أو فكرة لا تصدر عن الحس والتجربة ، في حين أنه ذكر أن الأفكار والانطباعات الحسية التي يتلقاها الإحساس من العالم الخارجي لا تنتظم ولا يكون لها معنى بدون فاعلية التأمل الباطني والبرهاني ، كما أن العملية المعرفية في تصوره لا تتم برمتها إلا بتضافر عاملي الإحساس والفكر الداخلي معاً بل والأكثر من ذلك أن تتميز معرفة الحس بالسلبية ، بينما تكمن الإيجابية فيما يقوم به العقل من عمليات فعالة نتيجة لتفاعله مع معطيات الحس عن طريق التأمل الذاتي .

وبينما أشار لوك للحس والفكر معاً ، نجد أن هوبز وكونديلك قد غالا في إتباع المنهج الحسي بحيث أخضعا كل معرفة وفكرة إلى مجال الحس فلا وجود لأى تصور في العقل عند هوبز لا يصدر كليا أو جزئياً من الأعضاء الحسية [١] بينما أن هيوم D. Hume قد سار في هذا الاتجاه حتى بلغ مداه فأصبحت التجربة الحسية وحدها هي مصدر الأفكار في العقل بل نفى وجود أية معرفة سابقة على الإحساس الذى صار هو والتجربة الحسية مصدر المعرفة للانسان [٢] .

---

١) علي عبد المعطي – تيارات فلسفية حديثة – دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤ . ص ٥ .

٢) زكي نجيب محمود ، ديفيد هيوم ، سلسلة نوابغ الفكر الغربي ، القاهرة ٩٥٨ ، ص ١٧١ .

الفصل الثالث

المعـــرفة التجريبية

* تمهيـــد

١ - معنى التجربة .

٢ - معنى الإحساس .

٣ - وظائف الإحساس .

٤ - الأفكار واللغة .

٥ - تصنيف الأفكار :

٦ - ماهية الصفات الأولية والثانوية .

٧ - الإدراك الحسي .

٨ - موقف لوك من الأفكار المركبة .

تمهيد

يتساءل لوك فى « المقال » عن مصدر المعرفة ، ومن أين تأتى الأفكار التى نجدها عند الطفل مثل فكرة اللون الأبيض أو الأسود ، وفكرة الحلو أو المر [١] . هل من المعقول أن تجىء إلينا هذه الأفكار عن طريق غير طريق الفطرة التى جبلنا عليها .

إن لوك يرفض مبدأ الفطرة ويؤكد على مبدأ الإستنتاج والإستدلال فيذكر أننا توصلنا إلى هذه الإفكار عن طريق أفكار أخرى سبقتها ، وتعرفنا عليها ، وعن طريق إستخدام الإستدلال ، والإستنتاج ، والمقارنات استطعنا أن نكون فكرة عن الأشياء ونستدل على حقائق مجهولة عن طريق مبادىء أخرى سبق أن عرفناها [٢] من قبل ، ثم نعود ونستنتجها من أخرى سابقة عليها وهكذا دواليك حتى تتكون لدينا مجموعة الأفكار التى تتكون فى الذهن عن العالم .

1) AN Essay. Book I Sec 3, p 67.

2) Ibid. Sec 9 p. 45.

١ – معنى التجربة : –

تعنى التجربة عند لوك إرتباط مجموعة من الأفكار فى الذهن بشىء واحد أو حامل واحد ، بمعنى أنه إذا قيلت هذه الصفات فأنها تدل على هذا الشىء، إن ثمرة التفاح على سبيل المثال فاكهة ذات لون أحمر ، ذات شكل مستدير ، وطعم حلو فاذا ذكر لفظ تفاحة أمامى فان الذهن سريعا ما يلتقطه ويرتبط فيه بأفكار الثمرة والإستدارة والشكل الأحمر والمذاق الحلو ، وينطبق مثل ذلك على البرتقال أو الزهر أو غيرها من الأشياء التى نتناولها فى العالم الخارجي .

ويحاول لوك أن يبحث عن أصل فكرة التفاحة وصفاتها هل هى قديمة مفطورة فى نفسه ، أم مكتسبة بالإستنتاج . يقول لوك هل معرفته عن صفات التفاحة وأفكاره عنها قد وجدت فى ذهنه منذ زمن ، بمعنى أنهـا حاصلة فيه كمعرفة أوليه سابقة apriori .

إن لوك يسهب فى تفسير ذلك فيقول : « هـل عرفت منذ زمن معانى الإستدارة والحلاوة والأحمراروغيرذلك من صفات ، وعندما أدركت التفاحة تذكرت لتوى معرفتي السابقة التى طبعت فى نفسى ، وحملتها روحي معي إلى العالم ، فاستطعت معرفة ثمرة التفاح بما أعرفه من أفكار سابقة عنها « فكرة التذكر الأفلاطونى فى المثالية » أم أنى عرفت التفاحة لأنها مستديرة مثل شكل الكرة التى سبق لى رؤيتها ، وعرفت أنها مستديرة مثل شكل التفاحة ، وأن البرتقالة تحمل نفس صفات الإستدارة وكنتيجة لهذه الإستنتاجات عرفتها .

إن لوك يرفض الفكرة المسبقة الأولى باعتبارها أولية ويقبل الفكرة الثانية البعدية à posteriori التي تأتى كمحصلة للخبرات الحسية [١] عن طريق الإستدلال والإستنتاج . ورفض لوك الفكرة الأولية الأولى تؤكد إيمانه بمعطيات الخبرة الحسية التى تعنى إستقبال الإنطباعات الحسية ، ونقلها على صفحة العقل البيضاء الخالية tabula rasa حيث تنتظم وتصبح إدراكا حسيا يعطى فكرة واضحة ، أو صورة ذهنية عن الشيء المحسوس . وهنا تبرز قيمة العقل الإيجابية ، إذ أن عمل العقل لا يتمثل فى وصف لوك له « بالصفحة البيضاء الخالية » التى تتلقى الإنطباعات فحسب ، وهنا يبدو ثمة معنى للسلبية من خلال المعنى الظاهر للعبارة ، بل يتمثل في المقام الأول فيما يقوم به من عمليات عقلية إيجابية (كالتذكر والتخيل والتركيز) فى تحصيل الصور الذهنية وتعديلها ، وتكوين الأفكار المؤكدة ، والدقيقة عن العالم الحسى .

---

1) AN Essay Book II, Ch. I, Sec 3, p. 123.

نص لوك :

« This great Source of most of the ideas We have depending Wholly upon Our Senses and derived by them to the understanding (I call sensation) .

٢ — معنى الإحساس :

بعد أن قدمنا لمفهوم التجربة عند لوك . نشير فى ايجاز إلى معنى الإحساس بصفة عامة ، مبينين الصلة بين الحس ، والعالم المادى .

فالإحساس ينشأ من تأثير العالم الخارجى على حواس الإنسان . فمظاهر البيئة المختلفة (كالذبذبات الكهرومغناطيصية — وجزئيات الجواهر الكيميائية) تنبه الحاسة المستقبلة ، وينتقل المنبه بعد ذلك فى صورة نبضات منفصلة خلال القنوات العصبية إلى الجزء المركزى من الحاسة ، وهو اللحاء المخى حيث ينشأ الإحساس . لذلك كان دور الإحساس ثانوى بالنسبة للواقع المادى المحسوس .

وتنقسم الإحساسات إلى مجموعة أنواع منها البصرى، واللمسى، والسمعى والذوقى ، والشمى ، ولكل مجموعة من الإحساسات حالة خاصة بها ، وصفات لا تقارن بصفات إحساس آخر . فالألوان لا تشبه الأصوات ، ولا الذوق ، أو الروائح .

وتعد الإحساسات البصرية من أكثر الإحساسات تطورا تليها فى درجة التطور اللمسية ، فالسمعية ، فالذوقية ، فالشمية .

٣ ـ وظائف الإحساس :

وتتوثق الصلة بين الإحساسات وخصائص العالم الخارجي حيث تتطابق الثانية مع الأولى فتبدأ عملية التوصل إلى معرفة العالم الموضوعي عن طريق الإحساس ولهذه العملية وظيفتان :

الأولى :

أهمية دور الإحساسات فى الإشارة . فعلى سبيل المثال يشير لون المعدن عندما يتعرض لوهج النار إلى حرارته ، وعلى الرغم من أن اللون فى حد ذاته ليس هو مصدر المعرفة بدون حرارة الجسم إلا إننا نعرف منذ البداية أن ثمة علاقة مشتركة بين اللون ، ودرجة الحرارة .

الثانية :

أهمية دور الإحساسات باعتبارها جزءا من الصورة التى يعطيها الإدراك الحسى فهو يفسر الصلات ، والعلاقات الموجودة فى العالم الخارجى الموضوعى .

والإحساس باعتباره مصدراً للتفكير الحسى هو القناة التى يرتبط الإنسان من خلالها بالعالم الخارجى .

٤ ـ الأفـكار واللغة :

يرى لوك أن رد المعرفة إلى الاحساس تؤيده دراسة اللغة فهى التى زود الله الانسان بها ، وهي شيء مصنوع على الرغم من توارث الناس لها ، لكنها رغم ذلك إختيارية من حيث عدم وجود صلة ضرورية بين أى لفظ ، وبين ما يشير إليه من أفكار .

وليست اللغة سوى علامات حسية معينة ترمز أو تشير إلى الأفكار الموجودة فى الذهن ، وبالتالى تصبح الأفكار التى تشير إليها الألفاظ هى الدلالة الحقيقيه المباشره لها .

وقد ساد اعتقاد قديم عن معنى « الكلمة » وأن دورها يتحدد فى الإشارة إلى شيء ما فاذا قلنا كوب ، فهذا يعنى أنها تشير إلا شيء خارجي موجـود في الواقع هو الكوب ، وقد غير لوك من هذا الاعتقاد عندما أكد على أن الكلمة لا تشير إلى الشيء الواقعى بقدر إشارتها إلى الفكرة الموجودة فى الذهن عن هذا الشيء ومن ثم فان الـكلمات فى دلالاتها المباشرة الأولية لا تشير إلا إلى الأفكار الموجودة فى ذهن قائلها ، لذلك يكون وضوح الكلمة مقترنا بوضوح فكرتها التي ترمز إليها .

٥ ـ تصنيف الافكار :

رأينا كيف قسم لوك الأفكار إلى حسية وتأملية . أما الفكرة عنده Idea وكما يعرفها فى مؤلفه « مقالة عن الفهم الانسانى » فهى موضوع العقل أثناء التفكير ، أو هى كل ما يمكن أن يوجد في ذهن الإنسان أثناء عملية

التفكير ، أنها مادته [١] ، ولذلك فهى الركيزة الأولى فى عمليـات العقل حيث بدونها لا يستطيع القيام بوظائفه .

وتصبح الافكار بسيطة Simple من حيث أنها أساس لقيام العقل بوظيفته كما تصبح ناتجة عنه من حيث كونها أفكاراً مركبة Complex [٢] وتتألف عمليتى الإحساس ، والتفكير من الأفكار البسيطة التى عن طريقها يؤلف العقل أفكاراً مركبة ، فهو لذلك يفعل بها ، أى يركبها ، وله دخل فى تكوينها على عكس الأفكار البسيطة التى ليست من صنع العقل بل ينفعل بها فحسب [٣] .

وسوف نعرض فيما سيأتى لنوعى الأفكار البسيطة والمركبة : —

أولا : أنواع الأفكار البسيطة :

تنقسم الأفكار البسيطة إلى ثلاثة أنواع : —

١ — أفكار مستمدة من الحواس الانسانية .

٢ — أفكار مستمدة من الحس الباطن مثل عمليات الذاكرة والإرادة والانتباه .

٣ — أفكار مستمدة من الحس الظاهر والباطن معاً مثل أفكار الوجود واللذة والألم والوحدة والعدد والتتابع وغيرها [٢] .

وسوف نعرض للأفكار البسيطة عند لوك بشىء من التفصيل : —

قسم لوك الأفكار البسيطة لثلاثة أنواع حسب نوع الحواس التى تكونها على النحو التالى :

---

1) AN Essay, A. C. Fraser, Book, II, Ch, II, p. 144.
2) Ibid
3) Ibid p. 145.
4) AN Essay B ok II Ch: 3 p. 148.

أفكار مستمدة من الحواس :

وهي تنقسم إلى (أ) أفكار تتكون في العقل بواسطة : حاسة واحدة مثل أفكارنا عن الألوان والنغمات والأصوات والطعوم والروائح ويذكر لوك فكرة الصلابة S l·d:ty كمثال على ذلك النوع من الأفكار التي تتكون في عقولنا نتيجة لاحساس بحاسة واحدة .

وفكرة الصلابة تعني المقاومة التي نحسها في الجسم عند محاولة أي جسم آخر أن يحل في نفس مكانه Thisis the idea which belongs to body Where by we Conceive it to fill Space » (١) .

(ب) أفكار تتكون في العقل بواسطة مجموعة من الحواس :

مثل أفكارنا عن المكان Space ، والأمتداد extension ، والشكل Figure ، والحركة m t·ou ، والسكون Rest حيث تتكون في عقولنا كنتيجة لانطباعات حسية وصلت إلى الذهن عن طريق حاستين هما البصر (العينان) Eyes واللمس Tι uch (٢) .

ثانياً : أفكار تتكون في العقل بواسطة التأمل الذاتي :

وهي الأفكار التي تنشأ عندما يزود العقل بالأفكار البسيطة التي وصلت عن طريق الحواس فيتجه إلى داخله لينظر في نفسه ويلاحظ عملياته التي يقوم بها بصدد هذه الأفكار ويجعلها موضوعا لتأملاته .

---

1) Ib'd Ch IV p. 152'

2) AN Essay; Chapter. V. p. 159.

ويمكن لأى شخص أن يلاحظ فى نفسه أهم عمليتين عقليتين هما الإدراك Perception أو التفكير Thinking والإرادة Willing أو الرغبة Volition ويذكر لوك بالإضافة إلى هاتين الفكرتين بعض الأفكار الأخرى مثل التذكر Remembrance والتميز discerning والتعقل Reasoning والحكم Judging والمعرفة Knowledge والصدق Faith .

ثالثاً . أفكار تتكون فى العقل بواسطة الاحساس والتأمل الذاتى معاً :

وتمثل هذا النوع من الأفكار أفكارنا عن اللذة Pleasure ،أو السرور delight ، وعكسها الألم Pain ، أو عدم الإرتياح Uneasiness ، والقوة Power ، والوجود existence ، والوحدة Unity ، والتتابع Succession (1) ، وإذا فصلنا هذه الأفكار فسوف نجد أن أفكارنا عن اللذة والسرور أو الالم ، أو عدم الرضا إنما ترتبط بأفكارنا الناجمة عن الإحساس والتفكير معاً من حيث أن هذه الافكار إنما تمر بمرحلتين متوازيتين يمثلان حالة خارجية تشعر معها داخلياً بالفرح أو السعادة أو الحزن أو الألم .

أما فكرتنا عن القوة فتأتى إلى العقل عن طريق الاحساس والتفكير أيضاً ، فإن الحوادث الخارجية من حزن أو فرح أو سرور إنما تبعث فى نفوسنا قوة تجعلنا نقوم بأفعال للتعبير عنها .

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر ينبغى أن نشير إلى الصفات الأولية Primary Qualities والصفات الثانوية Secondary Qualities الموجودة

---

1) Ibid. p. 159.

في الاشياء ، والقادرة على إحداث هذا التغير فينا وأضاف لوك إلى هاتين الصفتين القوة الخالصة Barely power .

٦ ـ ماهية الصفات الاولية والثانوية :

الصفات الاولية : Primary Qualities

وهي الصفات التي يتقوم الشيء بها ولا يكون له وجود بدونها ، وتتميز بالثبات ، وهي أساسية وملازمة للشيء على الدوام مهما تعرض للتغير .

وفي الكتاب الثاني من (المقال ـ القسم ١٣ ـ الفقرة ٩) يعرض لوك في صورة تحليلية لماهية الصفات الاولية في الشيء فيعطي مثالا بالشكل والإمتداد والصلابة بحبة القمح المقسمة agrain of wheat يقول « إننا إذا تناولنا حبة من القمح وقسمناها قسمين سنجد أن كل نصف منها مازال محتفظاً بدرجة من الصلابة والإمتداد ، وأيضاً بشكل معين ، وإذا قمنا بتقسيم كل نصف إلى نصفين فسنلاحظ إستمرار إحتفاظ كل جزء بهذه الصفات (الصلابة والإمتداد والشكل) لذلك فان تقسيم الشيء إلى أجزاء لا يزيد أو ينقص من صفاته الاولية الثابتة التي هي ضرورية ولازمة لوجوده » (1) .

---

1) AN Essay Book 11, Ch IIV Sec 9, p. 170.

الصفات الثانويه : Secondary Qualities

وهى عكس الصفات الأولى فهى ليست أساسية أو ضرورية بالنسبة لبقاء الشيء ، كما أنها لا تكمن فيه أو تلازمه ، لكنها مجرد قوى Powers تؤثر فينا فتنتج إحساسات متباينة عن طريق صفاتها الأولية مثل الألوان والأصوات والطعوم والروائح وقد سماها لوك بالثانوية لأن وجودها ليس ضرورى فى الشيء فقد توجد وقد لا توجد [١] كما يمكن للشيء أن يوجد بدونها فوجود المقعد مثلا لا يستلزم وجود لون ما كالبنى أو الأصفر أو الأبيض فاللون صفة ثانوية يمكن أن يوجد المقعد بدونها ، ولكن لا يمكن أن يوجد بدون قاعدته ، أو أرجله الأربعة ، فالشكل هنا صفة أولية أساسية ملازمة له بحيث لا يمكن تصوره بدونها .

ويضيف لوك إلى الصفات الثانوية القوى الخالصة ويقصد بها القوة الموجودة داخل الأشياء بالقوة مثل القوة الموجودة داخل النار Fire والتى يمكن إضافتها إلى الصفات الثانوية فهى على حد قوله ، تحدث تغييراً فى لون الشمع وشكله وصلابته ـ إنها صفة من الصفات الموجودة فى النار القادرة على إحداث فكرة فى ذهنى عن الاحساس بالدفىء أو الإحتراق » [٢] .

---

1) AN Essay, Book 11 , Sec VIII, par. 12 – 13 p. 171 – 172.

2) Ibid.

٧ - الإدراك الحسى : Perception

وقبل أن ينتقل لوك لشرح الأفكار المركبة يذكر مسألة الإدراك الحسى وقد أشار في الكتاب الثانى من « المقال » إلى أن الادراك الحسى هو الوظيفة الأولى التى يقوم بها العقل بالنسبة لإحساساتنا وأفكارنا ومن ثم فهو الفكرة الأولية والبسيطة التى يمدنا بها التفكير thinKing (١) ويميز لوك بين التفكير الذى يقوم بعملية التأليف بين الصور الذهنيه فيحولها إلى صور مركبة ، وبين الإحساس أو الإدراك الحسى الذى يعنى إنتقال التأثير من الموضوع (الشيء) إلى العضو الحسى .

ويتعذر لوك في إيجاد تعريف جامع مانع (٢) لمسألة الإدراك فيعرفه بخبرة الانسان الذاتية ، وبأعتباره عملية عقلية فانه يستلزم وجود العقل ومع ذلك فلن يكون للادراك الحسى معنى إذا لم يتم عن طريق العقل ، وهناك قوة يعرفها لوك بقوة الإحتفاظ Retention أى القوة التى تحتفظ بالأفكار البسيطة التى تتكون فى العقل والإحتفاظ يكون عن طريقين :

---

1) Ibid, Book II Chap IX paral. p. 183.

٢) عزمى اسلام - جون لوك - نوابغ الفكر الغربى - دارالمعارف بمصر ١٩٦٤ ص ٧٦ .

الطريقة الأولى :

يسميها لوك بالتأمل ContemPlation (١) وتعنى الاحتفاظ بالفكرة فى الذهن لفترة معينة بحيث لا تغيب عن عقل الانسان أو تتلاشى من إنتباهـــه .

الطريقة الثانية :

ويسميها لوك بالتذكر The memory (٢) وتعنى إحياء الصور الذهنية، الأفكار من جديد بعد أن تكون قد بعدت عن مخيلتنا أو نظرنا .

ثانيا ـ أنواع الأفكار المركبة

أولا : الأفكار المركبة من أعراض :

وهى تمثل أفكار أشياء لا تقوم بذاتها ، أى توجد من تلقاء ذاتها ،وهذه الأفكار تصنف إلى قسمين .

١ ـ أعراض بسيطة : Simple modes

كفكرة العدد المركب من تكرار الوحدة ، وكذلك فكرة الزمان والمكان المركبين من أجزاء متجانسة (٣) .

1) AN Essay Book 11, cha X para 1, p. 193

2) Ibid .

3) AN Essay. Book 11 Chap 3 p. 148.

٢ ـ أعراض مركبة : Compound modes

وهى الأفكار التى تتألف من معانى بسيطة مختلفة مثل معنى الواحد والصداقة والمجاملة ، أو معنى الجمال الذى يتكون من معنى الجمال المركب من اللون والشكل (١) .

ثانياً : الأفكار المركبة عن الجوهر :

وهى تمثل أفكار الأشياء التى توجد بذاتها كفكرة الإنسان ويقسمها لوك إلى قسمين :

١ ـ جواهر مفردة : Simple Subtances

وهى تمثل أفكارنا عن شخص ما ، أى إنسان ما مثل محمد أو على أو غيرهم.

٢ ـ جواهر جامعة : Collective Substances

مثل فكرتنا عن الجامعة أو المدرسة أو المجتمع أو النوع الإنسانى بوجه عام (٢) .

ثالثاً ـ الأفكار المركبة عن العلاقات : Relation

وهى أفكار مستمدة من التأليف بين فكرتين مختلفتين ، مثل أفكار العلية ، وعلاقات الزمان والمكان والغيرية (٣) والمقصود بالعلاقه هنا هى الأثر الذى

---

1) Ibid.

2) Ibid.

B. II. Ch X II Sec 7. p. 2:6.

3) Ibid.

يحدث فى الذهن من تأثير علاقة شيئين مختلفين أحدهما بالآخر ، فاذا حصلت السابقة ظهرت اللاحقة ، ويتم هذا التوقع بطريقة ذاتية بحتة لا دخل فيا للضرورة أو الموضوعية (١) .

* فكرة اللامتناهى : infinite

يذكر لوك فى مقاله أن فكرة اللامتناهي ليست بسيطة كما تصورها ديكارت ، لكنها فكرة مركبة ومكتسبة فى حالة إضافتها إلى الله أو الزمان أو المكان على حد سواء ، وتنتج هذه الفكرة من إضافة كمية معلومة بالتجربة إلى كمية أخرى مثلها ، وطبقا لذلك فلا يمكن تصور حدود للامتناهى من حيث أنه ليس موجود بالفعل فهو ناتج من تأثير عملية الجمع والإضافة التى تم بها العقل الإنسانى ولذلك فان فكرته تشير فحسب إلى إمكانية إضافة وحدة من الزمان أو العدد أو المكان مماثلة إلى ما لا نهاية ولذلك فقد أصبح التركيب وليس البساطة هو الطابع المميز للامتناهى (٢) .

وبالاضافة إلى أنواع الأفكار البسيطة والمركبة ، قسم لوك الأفكار من حيث مطابقتها للواقع إلى ثلاثة أنواع هى :

(أ) أفكار إما حقيقية Real وواقعيه أو وهمية Fantastical .

(ب) أفكار إما كاملة Adequate أو ناقصة Inadequate .

(ج) أفكار إما صادقة true أو كاذبة False .

---

1) Ibd.

1) AN Essay Book II, Sec 4, p. 37.

٨ ـ موقف لوك من الأفكار المركبة :

بينا فيما سبق موقف لوك من الأفكار البسيطة ، أما موقفه من الأفكار المركبة فيبدو غير واضح إلى حد بعيد ، إذ أن عملية التركيب التى ذكرها تتم عن طريق ما نستطيع إدراكه بالحواس بالإضافة إلى التعارض البين الذى يبدو بين نظريته التي ترد موضوعات الأشياء إلى تضافر عاملى الحس والتفكير البسيط ، وبين ما تعـــارف عليه فى تاريخ الفلسفات من تسليم بموضوعية الأشياء الخارجية ، وإستقلالها عن الذهن العارف (١) .

ومن الجدير بالملاحظة أن ثمة صعوبات إعترت تصنيفه للأفكار ولنأخذ مثالا على ذلك بفكرة التفاحة ، وهى شىء جزئى فانها تتركب من فكرة الإستدارة والمذاق الحلو والحمرة ، ولكننا قد نتساءل بعد ذلك عن الذى يبقى بعد هذا للفكرة العامة للتفاحة ؟ فكأن الفكرة المركبة عبـــارة عن تجميع لصفات معينة بدون رابط بينها من حيث أنه لا مجال لادراك الفكرة العامة عن التفاحة وهى التي ينطوى عليها المعنى الجوهرى لها ، ومن هنا جاء تصور لوك للجوهر غامضاً .

١) محمد على أبو ريان : تاريخ الفلسفة الحديثة . دار الكتب الجامعية ١٩٦٩ ط أولى ص ١٢٤ .

الفصل الرابع

تصور الجوهر عند لوك

* تمهيد

١ - أنواع الجواهر عند لوك .

أولا : الجوهر الروحى اللامتناهى (الله) .

ثانيا : الجوهر الروحى المتناهى (النفس) .

ثالثا : الجوهر المادى .

٢ - المعرفة عند لوك (أنواعها - حدودها) .

(ا) أنواع المعرفة

١ - المعرفة الحدسية .

٢ - المعرفة البرهانية .

٣ - المعرفة الحسية .

(ب) حدود المعرفة .

تمهيد

لقد كانت مشكلة الجوهر مثار بحث وجدل المفكرين فى عصر لوك فى نهاية القرن السابع عشر، وهو العصر الذى نهضت فيه العلوم، وإزداد الإهتمام بالعالم المادى، وعلى الرغم من إشارة لوك إلى وجود الجوهر، بيد أنه يصرح بأنه لا يعلم عنه شيئاً، وكان فى إمكانه رفض هذه الفكرة باعتباره فيلسوفاً تجريبياً يؤمن بمعطيات الحس، لكنه يؤكد فى الوقت نفسه على أهميه وضرورة تناول هذه الفكرة.

وفكرة الجوهر ليست فكرة بسيطة صادرة عن الحس أو التفكير، كما إنها من جهة أخرى ليست ناتجه من الأفكار البسيطة الصادرة عنها

ويبدو أن محاولة لوك فى سبر غور هذه المشكلة قد أورثته الرأى القائل بأن العالم المادى موجود، ولم يرى ضرورة فى محاولة إثباته أو البرهنة عليه كما كان يعتقد أسوة بغيره من علماء عصره أن المقصود بالجسم الجزئى المادى هو الجوهر، كما يطلق عليه الفلاسفه، وأن هذا الجوهر هو المصدر الأول والعلة الرئيسية لإدراكنا الحسى،ولذا فانه لن توجد فى عقولنا ثمة إحساسات أو أفكار، وبالتالى لن تقوم معرفة تجريبية ما لم يفترض وجود جسم جزئى مستقل عنا وعن إدراكنا (يقصد به الجوهر) وفى هذا الصدد يذكر رسل فى تاريخ الفلسفة الغربية : « لقد تصور لوك غموض فكرة الجوهر، وعدم جدواها، وكانت من الأفكار السائدة والمسيطرة على فلسفات عصره، ولكنه لم ينكرها على الإطلاق » . (١)

---

1) Russel, B: A History of western philosophy Book 3 ch 13 p367

فالجوهر عند لوك فكرة مجهولة تفترض فحسب لتكون حاملا للكيفيات المختلفة التي لا يمكن أن توجد بدون محور أو حامل Upholdig وهو ما نسميه بالجوهر . (١)

والحامل الذى يقصده لوك بالجوهر ، حامل الكيفيات المختلفة غامض مبهم يفترض لإحتياج الصفات إليه يقول لوك : إن من يسأل نفسه عن فكرة الجوهر فلن يجد فى نفسه إلا إفتراض فحسب لشيء لا يعرفه إلا على إنه دعامة لهذه الصفات القادرة على أن توجد فينا الأفكار البسيطة .

وهذه الصفات تسمى بالأعراض « فاذا سأل شخص ما عن الموضوع الذى يرتبط به اللون أو الوزن . فلن يجد سوى كلمة « الأجزاء الصلبة الممتدة « وإذا سأل وما هو ذلك الشيء الذى ترتبط به صفتا الصلابة والإمتداد ؟ » فانه لن يصبح فى موقف أحسن من موقف الهندى الذى تصور أن العالم مرتكز على فيل كبير ، ولما سئل وعلى أى شيء يقف الفيل ؟ elephant كانت إجابته « على سلحفاة كبيرة Great Tortoise وحين إضطر إلى معرفة تلك الدعامة أو العلة أو الأصل المجهول التى يفترض وجودها لنركز عليها الصفات التى ندرك وجودها بحواسنا ، والتى لا يمكن تصور وجودها بدون شيء يدعمها ، فقد سمى هـذه الدعامة بالجوهر « Substance » (٢) أو الحامل تلك الفكرة المزعومة التى يفسر زعمنا لها تلازم الصفات فى شيء واحد يحملها ، ولا يمكن تصوره بدونها وحيث أننا

---

1) AN Essay Book. II ch 23 Para 2p 392

2) AN Essay Book, II, Ch 23 Para 2, p. 393.

إعتدنا على أن ننسب الصفات لشيء أو محور أو جوهر أو أصل . (1)

وهكذا تبدو فكرة لوك عن الجوهر غير متسقة مع مذهبه الحسى التجريبي ، ومع ذلك فهو يرجع معرفتنا بالعالم الطبيعى إلى الإدراك الحسى الذى لا يتأكد فى نظره بدون وجود جواهر تحمل الصفات الحسية التى تؤكد وحدة موضوعات المعرفة .

وثمة غموض يعترى أفكاره أيضا عن الزمان والمكان والعدد ، واللا متناهى ، والعلية ، والأفكار الرياضية ، يحاول لوك الفكاك منها باصطناع حلول هشة . كما يجب أن نلاحظ أن هذا الموقف التجريبي الملتزم فى تفكيره وإرجاعه جميع الأفكار إلى تجربة الحس والإستبطان معا كان حجر عثرة كبير فى معالجته لجميع هذه القضايا التى تبدو غامضه ، وغير مقنعة .

---

1) Ibid.

(١) أنواع الجواهر عند لوك

ذكرنا من قبل أن لوك قـد زعم فكرة الجوهر لكى تكون حاملا للصفات القادرة على إيجاد الأفكار البسيطة فى عقولنا .

وتنقسم الجواهر عنده إلى قسمين ·

أولا : جواهر مادية Material Substances

وتمثلها الاجسام

ثانياً : جواهر روحية Spiritual Snbstances

وتنقسم إلى نوعين

(أ) جواهر روحية متناهية Finite

وتمثلها النفوس

(ب) وجوهر روحى لا متناهى Infinite

وهو الله

وبهذا التقسيم يعرض لوك لثلاثة أنواع من الجواهر مادية ، وروحية ، وروحية لا متناهية . وكان ديكارت قـد أشار من قبل إلى وجود جواهر ثلاثة كذلك هى النفس باعتبارها جوهرا روحيا متناهيا ، والله أو الجوهر الروحى اللامتناهى ، ثم الأجسام التى هى الجوهر المادى أو الإمتداد ، وسوف نعرض بشىء من التفصيل لهذه الأنواع الثلاثة من الجواهر عند جون لوك

أولا : الجوهر الروحي اللامتناهي (الله)

(أ) وجود الله وصفاته :

الله هو الجوهر الإلهي خالق النفس والعالم ، وهو جوهر لا متناه يعجز الإدراك المحدود للانسان عن الإحاطة به ، أما مفهوم اللاتناهي فهو معنى لا حق للاتناهي ، واللانهاية تعني تصور تدرج لا نهاية له غير متحقق فعليا . [1]

ويرى لوك أن جهل الانسان لماهية الله تجعله يركب فكرة عنه من خلال أفكار الوجود ، والمعرفة ، والقوة ، والسعادة ، واللانهاية والخلود [2]

(ب) حدود معرفه الله :

يذكر لوك في « المقال » أن الإنسان يجهل ماهية الله ولذلك تصبح معرفته غير فطرية ومن ثم تحتاج إلى برهان عقلي ، غير أن عقلنا قاصر عن إدراكها . والمعرفة بالله ليست فطرية وذلك لسببين :

السبب الأول : هو الجهل بماهية الله ، وقصور العقل عن إدراكها ، فلو كانت معرفته فطرية لتمت معرفة العقول بماهيته المجهولة .

السبب الثاني : هو وجود الملحدين الذين لو تمكنوا من معرفة الله بفطرتهم لصاروا مؤمنين به بلا شك .

لهذين السببين ينكر لوك أن تكون معرفه الله فطرية ، ومن ثم فهي تحتاج إلى برهان عقلي غير أن عقلنا قاصر عن إدراكها ، والإحاطة بها .

(1) AN Essay B ok :1, ch 17, Para 3, p 277.

(2) Ibid Book II ch :3 sec 35 p 42.

جـ ـ دليل لوك على وجود الله :ـ

يحاول لوك التدليل على وجود الله بالإستناد إلى ضرورة التسليم بوجود الأزلى القديم إستناداً إلى وجود الحادث المخلوق معلولا له فيرى أن الموجود الحادث الجزئى (الجوهر النفسى) يتطلب موجودا قديما كلى القدرة خلق العقل والمادة ، ونحن نلمح وجه شبه بين دليل لوك ودليل الواجب والممكن عند المسلمين ، ذلك الدليل القائم على ضروره التسليم بوجود الأزلى القديم إستنادا إلى وجود الحادث المخلوق معلولا له .

ويتصور لوك أنه بهذا الدليل قد برهن على وجود الله وماهيته فى آن واحد ، غير أن برهانه يقوم على مبدأ العلية ، كما يعبر عن فكرة مركبة ، وغير موضوعية .

ثانيا : الجوهر الروحى المتناهى (النفس)

(أ) إثبات جوهر النفس :

يحاول لوك إثبات جوهر النفس عن طريق الشعور الذاتى بالأنا ، وفحوى هذا الدليل تذكر النفس فى الحاضر لأفعالها الماضية ومن ثم يصبح الوعى النابع من الذاكرة هو سند وجود الذات (الأنا) . [1]

وقد ذهب لوك يبرهن على وجود الجوهر الروحى على اعتبار وجود فكرتنا عن الجوهر المادى ، مع أن فكرتنا عن الأخير تحتاج هى الأخرى إلى البرهنه على وجـــود شـىء ما برده إلى شىء آخر يحتاج هو أيضا إلى البرهنة عليه .

(1) AN Essay B II ch 23 para 33 p 4 8.

وهكذا تبدو أفكار لوك عن الجوهر النفسى قلقة مضطربة لسببين رئيسيين هما :

الأول : تصوره لأفكار النفس محصلة للحس الباطن ، أو للتجربة الداخلية تعد أفكاراً فى المرتبة التالية بالقياس إلى أفكارنا عن الموضوعات الخارجية .

ثانياً : غموض موقفه فى معرفة ما إذا كانت النفس من طبيعية روحية أو مادية ، بمعنى هل خلقت المخلوقات باعتبارها جواهراً مادية بسيطة ثم وهبها الله القدرة على التفكير .

إن تسليم لوك بوجود الجوهر الروحى النفسى تكتنفه ثمة صعوبات وقد عبر عن ذلك فى المقال بقوله « كلما تعمقنا فى طبائع الأشياء فاننا لا بدو أن نقع فى الظلام ، وننزلق فى الغموض ، كما تواجهنا الكثير من الصعوبات والحيرة ، ثم نكتشف فى النهاية أننا لم نزل فى ظلام وجهل » . (١)

(1) « and dive Further into the nature of things we Fall into darkness and obscurity perplexedness and difficulties and Can discover nothing Further but our own blindness and ignorance

القوى الإدراكية للنفس :

تتمثل قوى النفس الإدراكيه فى قوتين الأولى هى : قوة الإدراك الحسى Perc:ption التي توصل التنبيهات إلى العقل لكى يتم الإدراك . والقوة الثانية هى قوة الإحتفاظ Retention التى تحتفظ الأفكار البسيطة فى العقل على صـور مختلفة كالتأمل Reflection ، والتذكر Memory ، والتمييز Disscerning والمقارنة Comparing ، والتركيب Compound والتسمية Noming . (١)

ثالثاً : الجوهر المادى : Corp.real Substance

بعد عرض لوك لفكرة الجوهر الروحي والجوهر اللامتناهى ، يبسط فكرته عن الجوهر المادى في « المقال » ، فيرى أنها تتكون لدينا عن طريق ثلاثة أنواع من الأفكار هى :

١ ـ أفكارنا عن الصفات الأولية للأشياء(٢) primary qualities .

٢ ـ أفكارنا عن الصفات الثانوية للأشياء Sccondary qualities .

٣ ـ أفكارنا عن القدرة الكامنة فى كل جوهر مادى والتي تدفعه لأحداث أى تغيير فى الصفات الأولية لشىء آخر ، أو فى إستقباله هو نفسه لمثل هذا التغيير ، وقد سمى لوك هذه القوى بالقوى الايجابية أو السلبية active and passive

---

1) AN Essay, Book II, Ch. . 23 para. 23

I) AN Essay, B II Ch 23 Sec 2 391

2) Ibid

power ومثال ذلك التغييرات المباشرة التي تحدثها قطعة مغناطيس Loadstone في جزئيات الحديد . (١)

فاذا جمعت هـذه الأفكار البسيطة السابقة تكونت لدينا فكرة مركبة جديدة عن الجوهر المادى .

أما الأفكار الوهمية Fantastical Ideas عند لوك فهى موجودة من حيث أننا نعلم بوجودها فى الواقع ، وإن لم تصل هذه المعرفة إلى درجة كمال معرفتنا بالنفس أو بالله .

المعرفة التجريبية الحسية عند لوك :

يؤكد لوك على أن الحواس هى مصدرمعرفتنا بالعالم الخارجى ، ومن هنا تأتى أهميتها وضرورتها ، أما ديكارت فقـد شك فى أهميتها ، وبرهن على خداعها وزيفها ، وأنكر الثقة فيها كمصدر للمعرفة اليقينية ، بينما أن لوك أولاها أهمية بالغة بوصفها المعين الأول للأفكار ، فالحواس هى مصدر أفكارنا عـن كل مايحيط بنا فمـن فقد حاسة ، فقد معها معرفته بالأفكار المتعلقة بها .

لكن لوك يرى مع ذلك أن الأفكار التي لدينا عن الأجسام ليست مطابقة لها تماما ، كما إنها لا تمثل صور لأى أجسام خارجية تشبهها ، إنها رموز تشير إليها فحسب . فجواهر الأجسام مجهولة لنا (غموض مشكلة الجوهر عند لوك) غير أنها حاصلة على كيفيات خاصة تثير فينا أفكارا لا تمثل

---

1) AN Essay Sec 9 p 400

إلا مجرد تعبير إنفعالى لمدى تأثرنا بها .

والكيفيات على نوعين : أولية كالامتداد والشكل والصلابة والحركة ، وهى موضوعية ولازمة لوجود الشيء على الدوام ، وثانوية كاللون والصوت والطعم والرائحة ، وهى لا توجد في الجسم الخارجى بل فيما ينجم عن الكيفيات الأولية من آثار على الحواس .

ويرى لوك أن معرفتنا عن العالم يجب أن تخضع لمنهج الملاحظة والاستقراء سواء كان مصدرها خارجيا (الحس) أم داخليا (الإستبطان) ولهذا فانه ينكر المعرفة الميتافيزيقية ، ويرسى دعائم المعرفة التجريبية الحسية .

أفكارنا عن الجوهر المادى وغير المادى :

يذكر لوك أن تصورنا عن الجوهر المادى يتمثل فى فكرتين الأولى هى فكرتنا عن تماسك وتلاحم الجزئيات المنفصلة التي تكون مادة الجسد، والثانية فكرتنا عن القدرة الكامنة فى هذه الجزئيات والقادرة على توصيل الحركة وإستمرارها فى الجسد [١] بينما أن أفكارنا الأولية عن الجوهر الروحى تتمثل فى ملكتي التفكير والإرادة وهى القوة التي تمكن الجسم من الحركة أو السكون عن طريق التفكير . ويعرض لوك فى « المقال » دور الإرادة فى « دعم الحرية » حرية إختيارالانسان فىأن يتحرك لشيء ما أو يتوقف عن الحركة .

---

1) AN Essay B II Ch 23 Sec 17 P 407

كما يوجز أفكارنا عن الجوهرين المادى والروحي فيذكر أن فكرتنا عن الجوهر المادى تتمثل فى تصوره جوهراً صلبا ممتـداً an extended Solid Substance قادرا بقوة الدفع by mpulse على توصيل الحركة فى حين أن فكرتنا المركبة عن الروح (النفس) تتمثل فى تصورها جوهراً روحياً غير مادى يتميز بالتفكير والإرادة والقدرة على إحداث الحركة فى الجسم عـن طريق الإرادة Willing أو التفكير Thought . (١)

1) An Essay BooK II Ch 23 Sec 22

(٢) المعرفة عند لوك

أنواعها ـ حدودها :

(أ) أنواع المعرفة :

تنقسم المعرفة عند لوك إلى أربعة أنواع تندرج حسب درجة يقينها وهى على التوالى :ـ

١ ـ المعرفة الحدسية : Intuitive Know Ledge

٢ ـ المعرفة البرهانية : Demonstrative Know Ledge

٣ ـ المعرفة الحسية : Sensible Know Ledge

٤ ـ معرفة الإعتقاد الناشىء عن الايمان Faithful Know Ledge

وسوف نحاول إلقاء الضوء على كل معرفة من هذه المعارف على حدة :ـ

١ ـ المعرفة الحدسيـــة : Intuition

(Not So clear as Intuitive Know Ledge)

يطلق لوك على هذا النوع من المعرفة إسم المعرفة البديهية أى التي لا يحتاج الانسان إلى البرهنة عليها [1] كما لا يستطيع القيام بذلك . يقول عنها في المقال « إنه الحدس الذى تعتمد عليه جميع معارفنا المؤكدة والواضحة » [2] . والمعرفة البديهية هى الواضحة بذاتها فالأبيض غير الأسود ، والمربع غير المثلث والإنسان غير الحيوان . وعلى مستوى العدد فالعدد ٤ أصغر من العدد ١٠ ،

(1) AN Essay Book, IV, chap. II para. 1 p. 177.

(2) Ibid. p. 177.

وأكبر من العدد ٢ ، كما أن للمثلث ثلاثة أضلاع ، والمربع شكل هندسي ذو أربعة أضلاع . وقد تأدى تعريف لوك للمعـرفة بأنها إدراك للاتفـاق والاختلاف بين الأفكار إلى هذا النوع البديهي أو الحدسي، وذلك يعني أن معرفتنا باللون الأصفر تختلف عن معرفتنا عن اللون الأزرق وإذا نظـرنا إلى الأشـــكال الهندسية لوجدنا الاختلاف بين بينها فالدائرة تختلف عن المثلث والمعين يختلف عن الدائرة .[1] وعلى الرغم من هجوم لوك على أنصار المعرفة الفطرية وإنكاره لمبادئها وأفكارها إلا أننا نجده حين يذكر المعرفة الحدسية يكاد يقترب في مفهومها من مفهوم المعارف والحقائق الفطـرية بصفة عامـة .

٢ ـ المعرفة البرهانية :ـ demonstration

هي ذلك النوع من المعرفة التي يجب البرهنة على يقينها والتأكد من مدى سلامتها وصحتها بعد إقامة البرهان عليها[2]. فليس الحدس هو طريق الانسان الوحيد للمعرفة .

ويقسم لوك المعرفة البرهانية إلى قسمين رئيسيين هما :

أولا : الاستدلال الرياضي :

من حيث أن النظرة الرياضية تتسم بالصدق واليقين فالمعرفة بالحقائق الرياضية من قبيل المعرفة البرهانية وليست الفطرية كما ذكر ذلك ديكارت،الذي تصور

(1) AN Essay : B 4. Ch 2, Pora 6, p. 180 – 181.

(2) Ibid:

أن حقائق الرياضة عند لوك صادقة يعتمد صدقها على البرهان[١] أما القسم القسم الثانى للمعرفة البرهانية فهو الاستدلال على وجود الله : والذى يحاول لوك إثباته بطريق العلة الأول، حيث يسلم فيه بمبدأ العلية باعتباره مبدأ لاشك فيه وغير قابل للبرهنة ، وفحوى هذا الدليل أن كل ماله بداية فلابد وأن تكون له علة ، فاذا كان هو يوصفه إنسانا له بداية، فمن الضرورى أن تكون هناك علة تسببت فى وجوده ، فهو يحاول إثبات وجود الله كفكـرة ذهنية فحسب . وليس مستغرب أن يكـون هذا هو موقف لوك وهو فيلسوف الفكر والعقل الذى يحاول أن يثبت وجود عالم الفكر لا عالم الأشياء لذلك يعود ويذكر أن الوجود الإلهى من الموضوعات المستحيلة التصور بالنسبة للانسان وأن العقل عاجز عن الوصول للماهية الحقيقية للألوهية .

٣ ـ المعرفة الحسية :

أما المعرفة الحسية وهى النوع الثالث الذى يذكره لوك من درجات المعرفة فتعني العلم والإحساس بوجود العالم الخارجى [٢] . وهى معرفة تقل فى يقينها عن اليقين الموجود فى المعرفة الحدسية والبرهانية ، وتتأتى هذه المعرفة من العالم الخارجى الذى ينبغي أن نقر بوجوده . (عالم المحسوسات) والذى لولا وجوده لما استطعنا أن نحصل على أفكارنا، وهى مادة الفعل ولكى يؤكد لوك على أهمية الأفكار ذهب يؤكد واقعية وحقيقة العالم المادى ، وإنه لامحل للوهم أو الخداع فى حقيقته فبرهن على وجود العالم الخارجى بدليل الإدراك

(1) AN Essay — Book 4. ' chap. 11 parā. 9. d. 182.

(2) AN Essay. Book 4. chap. 11.

الحسى[١] الذى يعنى إثبات وجود العالم الحسى عن طريق الادراك الواعى والحقيقى له . والمعرفة الحسية شرط ضرورى لقيام الأنواع الأخرى من المعرفة وهى لا تحتاج إلى برهان بعد أن عرضنا لأنواع المعرفة الحدسية والبرهانية والحسية يفترض لوك وجود نوعا رابعاً من المعرفة هى المعرفة الإعتقادية التى تأتى الانسان من طريق الإيمان بالمعتقدات الدينية ، وهى ذلك النوع من المعرفة الذى لا يمكن البرهنة عليه لسموه عن مستوى مداركنا وحواسنا ، بيد أننا نتمسك به بشدة عن طريق الاعتقاد لأنه يعد سراً من أسرار الإيمان mysteries of Faith .

(ب) حدود عند لوك

Extent of Human Knowledge

بعد أن عرض لوك لدرجات أو أنواع المعرفة ، نجده يبحث فى مسألة حدودها فيذكر أن معرفتنا محدودة بالأفكار [٢] التى تمثل الإساس الأول للمعرفة ، إذ يستحيل معرفة شىء من الأشياء لا تتكون لدينا عنه فكرة من الأفكار ، وعلى الرغم من أن الحواس هى التى تمدنا بالأفكار عن العالم والأشياء الواقعية ، فان لوك يتفق مع ديكارت فى أنها ليست المصدر اليقينى للحصول على معرفة كاملة عن العالم ، فالمعرفة الحسية ليست محل صدق مطلق أو يقين نهائى لأن النظرة الكلية عن طريق العينين لا تعطنا رؤية جزيئية أو تفصيلية عما نراه يقوم بالفعل فى الواقع حقيقة ، كما أن عملية سماع الأذن للاصوات لا تنطوى على تحديد دقيق لموجات الصوت أو قياسها لكننا نسمع

---

(1) Ibid.

وحسب ، ولهذا السبب ذهب لوك إلى القول بقصور المعرفة الإنسانية وإنه لن يستطيع معرفه الماهيات غير كائن آخر يؤتى من القدرة والقوة مالا توجد عند الإنسان ويبرزعدداً من المبررات التي تثبت قصور المعرفة اليقينية منهاعجز الإنسان عن إدراك العلاقات الضرورية بين صفة محسوسة (٤) أولية أو ثانوية ، وأخرى ، كما أنه يعجز أيضا عن إدراك العلاقة الضرورية بين تلك الصفات المحسوسة ، وبين الجوهر الذى يحملها لهذا فقـد إنتهى لوك إلى أن لمعرفة الإنسان حدودا يقف عندها حتى أن عقله لايستطيع بما يحتويه من أفكارأن يمنحه معرفة كافية عن الأشياء ، ثم يختلق بعد ذلك بعض المسائل الجدلية المثيرة يذكرمنها: ماذا لو كانت المادة مفكره ، وبذلك يمكن الإستغناء عن العقل الإنسانى ومن ثم ينكرمذهب الثنائية الذى يتصور أن الجسد مكون من جوهرى النفس والجسد ، وأن العالم الطبيعى مكون من مادة وعقل يختلف كل منهما فى طبيعته ، ويقصد لوك من هذا الموقف تصورخلق الله للمادة فى العالم، وهى متضمنة للفكر بدلا من أن يخلقها مجردة منه ، بعد ذلك يضيف إليها الإنسان أو الجوهر المفكر الروحى ، ويبدو أن لوك لم يكن يقصد من قوله هذا التعقيد فى المخلوقات ولا لإثبات أن المادة جوهر مفكر من جهة أخرى ، وإنما أراد فقط أن يثبت عجز العقل عن فهم أن مكونات ذلك العالم يعجز الإنسان عن الوصول إلى ما هياتها .

الفصل الخامس

النظرية السياسية

* تمهيد
(١) مقالتان فى الحكومة المدنية ، ورفض الحق المقدس للملوك .
(٢) رسائل في التسامح ، وفصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية .

تمهيد

النظرية السياسية عند لوك

نعرض فى هذا الفصل للنظرية السياسية عند لوك والتى تبلورت معالمها فى مؤلفيه السياسيين .

« مقالتان فى الحكومة المدنية » و « رسائل فى التسامح » فى محاولة لابراز أهم جوانب هذه النظرية وأهم المبادىء السياسية التى إنطوت عليها . وأثرها فى نظرية السياسة فى عصر لوك ، وفى إثراء الفكر السياسى لمعاصريه ولاحقيه .

(١): مقالتان فى الحكومة المدنيه، ورفض الحق المقدس للملوك:

رأينا فى الفصول السابقه كيف رفض لوك الأفكار الفطرية التى أكدتها المذاهب العقلية وخاصة عند ديكارت، ورد المعرفة الإنسانية إلى الخبرة والتجربة الحسية باعتبارهما مصدر المعرفة العقلية. وكما أنكر لوك المعارف الفطرية ونادى بالمعرفة التجريبية المكتسبة فقد أنكر تمشياً مع منطق مذهبه التجريبي نظرية الحق الإلهى للملوك مؤكدا على أنهم لايولدون وفى دمائهم الحق الإلهى أو الفطرى الذى يبررون به حكمهم المستبد وطغيانهم لرعاياهم، لأن الناس جميعا متساوون وأحرار.

ولما كان الملوك يولدون بدون حق إلهى موروث فى دمائهم. ولما كانت جميع الناس متساوية منذ الميلاد، فلا بد وأن يكون لكل إنسان نفس الحقوق الطبيعية التى يتمتع بها الآخر، وعلى ذلك فلابد أن يخضع الجميع لنفس القانون الذى أطلق عليه لوك القانون الطبيعى Natural Low أو الفطرى.

وبقدر ما كان رفض لوك للأفكار الفطرية هو البداية والقاعدة التى أسس عليها مذهبه التجريبي فى الإبستمولوجيا، فقد كان رفضه للحق الإلهى للملوك وما ترتب عليه من تأكيد لمبادىء المساواة والحرية هو المدخل الثورى لنظريته السياسية التى تركت آثارها الخطيرة على حركات التحرر التى حدثت أوربا فى القرن السابع عشر. ويعد مؤلف روبرت فيلمر « Patriacha » Robert Filmer الذى ظهر فى العصور الوسطى متضمناً فكرة حق الملوك المقدس من بين العوامل التى دفعت لوك لكتابة آرائه السياسية، والإفصاح

عن أفكاره فى مبادىء المساواة والحرية . وليس أدل على ذلك من الآراء التى عرضها فى « مقالتان فى الحكومة المدنية » والذى ظهر تحت عنوان :—

Two treatises of government, in the Former the False Principle and Foundation of sir Robert Filmer and his Followers are detected and overthrown — the Latteris an essay Concerning the original extent and end of civil government".

وقد إستغرق كتابة هذا المؤلف حوالى عشر سنوات فقد بدأ لوك فى كتابته من عام ١٦٨٠ وإنتهى منه عام ١٦٩٠ ، وهو يتكون من مقالتين خصص الأولى منها لتفنيذ مبدأ « الأبوة » الذى نادى به روبرت فيلمر فى مؤلفه « **Patriarcha** » بينما خصص موضوع الثانية الرد على نفس المؤلف فى فكرته عن الدولة — أو الإمتداد الطبيعى للاسرة الحاكمة ».

وسوف نوجز الأفكار الرئيسية لمؤلف « الأبوة » ورد لوك عليها فيما سيأتى :

كان رد لوك فى المقالة الأولى رفضا لرأى روبرت فيلمر فى فكرة الحق الإلهى للملوك التى تداولتها الجامعات فى العصور الوسطى ، والتى نادت بحق الملوك المقدس فى حكم الناس باعتبارهم مفوضين من مصدر إلهى لحكم الشعب بطريقة إستبدادية مطلقة لاينبغي للشعب الإعتراض عليها ، أوالثورة ضدها ؛ لأن ذلك يعنى خروجا على طاعة الملك الذى هو ظل للاله على الأرض (١) فيجب على الشعب طاعة أحكامه وتنفيذ أوامره .

(1 **Rüssell . B : A History of Western philosophy Book 1 p942**

أما الرأى الثانى لفيلمر فينادى فيه بأن الدولة التى يحكمها الملك ليست سوى إمتدادا طبيعياً للأسرة الحاكمة ، وقد أنكر لوك أيضا هذا الرأى وأخذ فى تحليله والرد عليه فى مقالته الثانية عن الحكومة المدنية .

✱ نظرة سياسية إلى فكرة الحق الإلهى المقدس (Patriarcha)

يضم كتاب الأبوة « Pat·iarcha » لروبرت فيلمر عددا من الأفكار التى تشبع بها الفكر فى العصر الوسيط ، التى دفعت لوك للرد عليها فى مقالتيه عن الحكومة المدنية وهذه هى الخطوط العريضة لكتاب « الأبوة » : —

أولا : للملك الحق فى حكم رعاياه حكما مطلقا استبداديا طبقا لمبدأ الحق المقدس للملوك .

ثانيا : للملك الحق فى وضع القوانين التى تتراءى له ، والتى يسير الشعب بمقتضاها دون معارضة ، لأنه من المستحيل أن يضع الشعب بنفسه قانونا يقيد به حريته .

ثالثا : أن الدولة التى يحكمها الملك ليست سوى إمتداد طبيعى للأسرة الحاكمة التى يفوضها الإله لتولى الحكم .

وترتب على هذه الآراء التعسفية التى أطاحت بحرية الإنسان أن أصبح على الشعب الإلتزام ببعض الأوامر الخاصة بالحق الإلهى للملوك على النحو التالى :

أولا : أنه لما كان الملك حق مقدس من قبل الله فى حكم الشعب ، فمن ثم يجب طاعته ، وعدم الخروج على أوامره ، وهذا يقتضى من الشعب

ألا يعارضه أو يثور ضده مهما بلغت المساوىء . لأنه مفوض من قبل الله لحكمهم والطاعة له واجبة .

ثانيا : لما كان للملك الحق فى وضع القوانين الملزمة للشعب فإنه تجب طاعتها والإلتزام بتنفيذها ، وعلى الشعب ألا يتذمر من ذلك ، أو يحتج على القوانين التي يصدرها الحاكم المقدس هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فليس للشعب الحق فى وضع القوانين ، لأنه يستحيل أن يضع هو بنفسه ما يقيد به حريته .

ثالثا : لما كان للملك الحق المطلق فى حكم رعاياه فإن الدولة تصبح هى الإمتداد الطبيعى للأسرة الحاكمة ، وعلى الشعب أن يخضع للحاكم خضوع أبناء الأسرة لحاكمها الأكبر ، غير أن هذا الرأى قد لقى هجوما من لوك تمثل فى كتابة مقالته الثانية فى الحكومة المدنية ، التى ذهب فى رده عليها إلى إنه من غير المقبول أن نطابق بين نظام الأسرة بصورتها القديمة ، ونظام الدولة الحاكمة أو سلطة الحكومة ـ بما يبرر للشعب الطاعة العمياء للحاكم والخضوع المطلق لأوامره الملكية الإلهية .

لقد هاجم لوك الآراء المتعلقة (بالحق المقدس للملوك) والتى طرحها فيلمر فى كتابه ونادى بحرية الإنسان فى تقرير مصيره ، وبالمساواة بين الناس فى الحقوق الطبيعية .

ويظهر فى المقالة الثانية من الحكومة المدنية رفض لوك لأن تكون الدولة إمتدادا للأسرة المالكة الحاكمة بما يفرض معه على الشعب الخضوع لأوامر الملك بصورة مطلقة ، وقد أيد لوك هجومه بفكرة العودة إلى نظام الأسرة

القديمة و نظام الحكم فيها ، و كيف عاش الناس فى حالة الفطرة (الحالة الطبيعية) التى تميزت بخاصتين يهدما رأى فيلمر هما الحرية ، والمساواة ـ فقد عاش الإنسان فى حالة الفطرة على الطبيعة ينعم بحياة يسود فيها حب الخير والتسامح ، والعمل المتبادل ، والقناعة ، والتعاون ، ومراعاة حقوق الآخرين ـ عاش الإنسان وهو سعيد فى ظل قانون الطبيعة (الفطرة) الذى يساوى بين الجميع كل بقدر عمله وإجتهاده فصار مبدأ الحرية هو مبدأ الفطرة الذى ينعم به كل إنسان بل هو ملك له ، وملك للجميع بموجب قانون الفطرة ، ومن ثم فقد أصبح عليه ألا يتنازل عن هذا الحق الطبيعى فى الحرية إلا بمحض إرادته الخاصة ولمن يشاء [1] .

بعد عرض التصور العام لنظرية لوك السياسية نشير بشىء من التفصيل لبعض أفكار رئيسية فى هذه النظرية ـ كحالة الفطرة الأولى (الحالة الطبيعية للانسان) وفكرة العقد الإجتماعى ، وتصور الحكومة ، وكذلك فكرة حق الثورة ، وهى أفكار رئيسية وبارزة تفرض نفسها على كل من يبحث فى نظرية لوك السياسية .

1) Two Essay .. Civil government Ch. IX p. 118.

أ ـ الحالة الطبيعية الأولى للانسان :

يذهب لوك فى وصفه لحالة الإنسان الأولى إلى أنها كانت مثالية ، يسود فيها السلام والطمأنينة وتشيع فيها روح المحبة والوئام بين الناس [١] وكان مبدأ المساواة بين الناس الذى منحته الطبيعة لهم هو القاعدة الأساسية لمشاعر المؤاخاة والإحسان . والقيام بالواجبات وحب الخير وتبادل المنافع . وقد عرف جميع الناس فى ظل القانون الطبيعى ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات نحو إحترام ملكياتهم الخاصة وملكيات الآخرين وحقوقهم [٢] .

فى ظل هذه الحياة الفطرية الآمنة منح القانون الطبيعى للانسان حقوقا ثلاثة هى حق الحياة أو المحافظة عليها ، وحق الحرية الذى تساوى الجميع فى التمتع به ، وحق الملكية الذى منح كل إنسان الحق الكامل فى ملكيته الخاصة التى يعمل فيها بحرية ، ويضيف إليها وينميها بجهده وعمله من حيث هى ملك

---

١) تختلف الحالة الطبيعية بين لوك وهوبز فبينما يصفها الأول بأنها حالة سلام وأمن، يصفها الثانى بأنها حالة صراع ونضال وحرب ، كما تختلف صيغة ونصوص العقد الاجتماعى بينهما، وكذلك يختلف تصور السلطة ، فبينما تتركز عند الأول فى يد الأغلبية (الشعب) ويخضع الحاكم للقانون ، أسوة بغيره . نجدها عند الثانى سلطة مطلقة تتركز فى يد الحاكم أو الهيئة الحاكمة وبذلك بلغت الحرية أوجها عند لوك بينما قيدتها سلطة الحاكم الموتاركي عند هوبز .

2) John SomeRville. R. E. Santoni, Social and Political Phil sophy original Extend and end of Civil Government p 176.

خاص له (١) .

وقد أشار لوك إلى مبدأ الملكية الخاصة التي تساعد الإنسان على إستمرار وحفظ حياته ، والاستمتاع بثمرات جهده ، وبرزت فكرة الملكية عنده من خلال التصور الديني بأن الله قد منح بني الإنسان الأرض لكي تكون ملكا مشتركا وعاما لجميع أفراد النوع (٢) كما وهبهم العقل الذي يستفيدون من خبراته في إصلاح حال حياتهم ، لكن ذلك لم يمنع من أن يكون لكل إنسان ماـــلكه الخاص الذي يمتلكه باعتباره حقا له من بين الأراضي التي وهبها الله لمخلوقاته ـ والفيصل هنا بين الملك الخاص والعام يكون وقفاً على جهد الإنسان وعمله داخـــل الملك الخاص ، وفي الجزء الذي يعمل فيه ويبذل في استغلاله طاقته وهو يفعل ذلك تحت سمع وبصر أقرانه وبموافقتهم على أن هذا ملك خاص له (٣) . وأن كل واحد منهم له ملكيته الخاصة التي يبذل جهده فيهـــا لإصلاح حياته ، وتوفير سبل معيشته (٤) .

---

1) Ib'd.

2) « It is Very Clear that God asking David Says psalm has given the earth to the Children of men » .

3) Locke original — Extent and end of Civil Government Social and political philosophy p. 176.

4) Ibid . God when hegave the world in Common to all manKind :.. God and his reason Commanded him to Subdue the earth ie improve it For the benefit of Life» p. 78. Civil government .

ب ـ حق الملكية وبداية الصراع : ـ

لكن حق الملكية والمحافظة عليها أصبحت من الأمور العسيرة في حالة الطبيعة ـ إذ جار البعض على حقوق جيرانهم ، وطمع الآخرين في أملاك البعض ، فتفشت حالات إغتصاب الملكيات والاعتداء على الجوار ، وظهرت السخرة والطمع ، وإنتشر الشعور بالسخط والظلم ، والحسد والغيرة وأدى تغلب الأقوياء على الضعفاء إلى أن ساد شعور الحسد والكراهية بين الناس . وهكذا تحولت حالة الطبيعة الفطرية الآمنة من حالة سلام وأمن وحب إلى حالة حرب وخوف وكراهية ، وإشتد الصراع على الممتلكات الخاصة وتحول حق الملكية الطبيعي الذى وهبته الفطرة الأولى للانسان (والذى بمقتضاه أمن الناس الشرور باحترام بعضهم لملكيات البعض) إلى رأس حربة في صدر كل إنسان ليتحول معه مجتمع الطبيعة الآمن إلى مجتمع حرب ونزال وصراع من أجل الحصول على الممتلكات ، وتكوين الجماعات بغرض القوة والإستحواز على الأرض . فاذا بالإنسان الآمن يتحول إلى شخص متحرش عدوانى متحفز للحفاظ على ملكه الخاص ، متأهب الدفاع عنه .

بلغت هذه الحالة بالإنسان إلى التخلى عن الخصائص والخصال التي تحلى بها في الحالة الطبيعية ، فبدأ في البحث عن حالة إجتماعية يتكتل فيها مع غيره وينضم إليهم بقصد تكوين مجتمع سياسى أو مدنى [1] .

---

1) ohn Loc e. AN Essay .. Civil government Ch IX sec 123.

جـ ـ العقد الاجتماعي : ـ Social Contract

بعد تحول المجتمع من الشكل الطبيعي الأول إلى الشكل المدني كان على الناس أن تتفق طواعية أو تتعاقد على أن ترتبط وتتحد في مجتمع يكفل لها الحياة الآمنة دون أن يحدث ما يقوض أمن هذه الحياة [١] . وكان ذلك عن طريق العقد الإجتماعي .

وتعني فكرة العقد الاجتماعي ، تعاقدا يضم طرفين هما الشعب والحكومة أو الملك ، ولا يصبح العقد لاغيا إلا إذا أخل أي طرف منها بالتعاقد ، فاذا حدث وأهمل الملك في مسئولياته تجاه الشعب أو أخل بتعهداته أو تعدى السلطات التي خولها له الشعب تعين عزله [٢] . وبموجب هذا العقد يتنازل الأفراد عن حقهم في الحياة وفق قانون الطبيعة، وعن الحق في عقاب من يخرج على هذا القانون ، لذلك تتناول طبيعة العقد الموافقة من قبل الأفراد أو الأغلبية على التنازل عن جزء من حقوقهم الطبيعية الخاصة بالدفاع عن أنفسهم ومعارضة الخارجين على القانون الطبيعي إلى المجتمع ككل [٣] .

أما الهدف من التعاقد فهو تنظيم حماية الحقوق الطبيعية للفرد ، وما يمتلكه من حقوق مثل حق الحياة والملكية والحرية ، فكأن التنازل بهذه الصيغة لا يعني تنازلا بالمعنى المطلق لكنه تنازل عن جزء فحسب مما يمتلكه الإنسان بمعنى آخر أن الناس تتنازل في العقد الاجتماعي عما يجعلهم يمثلون أدوار

---

1) Locke, two treatise of Civil government p 164.

2) Maurice cranston, Locke on Politics, Religion and Education, F. E. 1965 New York p. 50 - 51.

1) Ibid.

القضاة والمنفذين فى نفس الوقت للقانون الطبيعى فيتنازلون عن هذا الدور للمجتمع ككل [١] .

ولقد ظلت فكرة العقد الاجتماعى حية فى أذهان فلاسفة العصر الحديث مثل هوبز ولوك وروسو ، بيد أنهم اختلفوا حول طريقة إستخدامها فقد جعلها الأول تبريرا للحكم الملكى المطلق ، فى حين أيد بها لوك الحكومة الدستورية أو الملكية المقيدة إنطلاقا من حق الافراد فى الثورة على صاحب السلطة ، أما روسو فقد ذهب مخالفا لهوبز تماما ، ومغاليا لما نادى به لوك حين إستخدمها ليؤيد نظرية السيادة الشعبية ، « وعلى وجـه العموم فقد استخدمت هذه النظرية لتأكيد ضرورة قيـــام السلطة فى الدولة على رضا المحكومين ، واقتناعهم وذلك بقدر ما تتيح للشعب أن يمارس حقوقه ، وحرياته [٢] » وفى الوقت ذاته فقد ساعدت النظرية على زوال الصفة المقدسة التى أضفاها فكر العصور الوسطى على الدولة بعد ما تبين أن الانسان هو الذى شارك فى خلقها ، وهكذا أصبحت السلطة فى الدولة أقرب إلى الأرض وعامة البشر منه إلى السماء ، والسلطان الإلهى » [٣] .

من خلال هذا المفهوم لفكرة العقد الاجتماعى [١] نجد أن لوك يعطى الدور الأكبر والهام للمجتمع ككل ، أى لمجموع الأفراد فيجعل الكلمة

---

1) Maurice Cranston - Locke on Politics p. 52.

2) Alburey Castell. D. M. B : AN Introduction to Modern philosophy N. Y, 1983, 4 p 310

(٣) عبد الرحمن خليفة : مقالات سياسية ، حـ ١ ، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥ ص ٢٠٥

العليا للشعب . وليس ذلك بمستغرب على فليسوف يرى كان يرفض مبدأ السيادة المطلقة للحاكم أو الملك وكان يريد للشعب أن يمسك بمقاليد الأمور لذلك فقد ظلت الحقوق الطبيعية للأفراد وهى مبادىء الحياة Life ، والحرية Freedom ، والملكية Property هى مصدر القوة والسيادة فى المجتمع المدنى كما كانت من قبل فى حالة الطبيعة ، وهذا يعنى أن الشعب هو المصدر الأساسى ومن ثم فان له مطلق الحرية فى إختيار من يشاء أن يوليه السلطة .

ويستتبع هذا التصور ثلاثة أمور هامه :

أولا : أن حـق الأغلبية The Right fo majority سوف يمثل القاعدة الأساسية فى المجتمع ويكون مصدر السلطة تشريعية أو تنفيذيه ، فيصبح من الضرورى أن تخضع إرادة الأقلية لإرادة الأغلبية ، أو الإرادة العامة General will .

ثانياً : تقييد سلطة الملك بقيدين هما ضرورة تنفيذ نصوص القانون المراعى فيها الحقوق الطبيعية ، والإلتزام بالعقد الإجتماعى الممثل للطرف الثانى .

ثالثا : إن أى إخلال للملك بالمسئولية وتعديه لحدوده المخولة له من جهة الشعب (الطرف الثانى الموقع فى العقد) يستوجب عزله واختيار من يحل محله فى الحكم (١) .

---

(1) Maurice cranston, Locke onpolitics. p 54 Second treatise oncivil government .

د ـ العقد الإجتماعى بين هوبز ، ولوك :

على الرغم من ورود فكرة العقد الإجتماعى عند كل من هوبز ولوك بيد أنها اختلفت فيما بينهما فقد أقر هوبز بوجود الحق الطبيعى ، ونفى فكرة وجود القانون الطبيعى ؛ ولهذا فقد سادت فى تصوره شريعة الغاب فى غياب القانون وأقرار الحق الطبيعى [١] . وهكذا أصبح الإنسان عند هوبز حراً فى سلوكه وتصرفاته ، ساعيا لمصلحته مزهواً بقوته ، ومتصفـــاً بالأنانية والعدوانية والطمع .

أما تصور العقد الإجتماعى عند لوك فقد صاحبته حالة تشابه بين حالتى الإنسان الطبيعية ، والمنظمة ، لأن الإنسان لا يوجد فى أى تجمع بشرى بدون القانون والنظام ، وعلى ذلك فيجب أن يسود القانون الطبيعى الحالة الطبيعية ذلك القانون الذى ينبغى على كل فرد أن يدين له [٢] .

---

1) Popkin, H Richard, Avrum Stroll : Philosophy made Simple, U. S, A. N. Y. 1956 p. 54.

2) Ibid, p. 57.

هـ - الحكومة وفصل السلطات :

بعد أن ضمن لوك بموجب العقد الإجتماعى حماية الأغلبية الممثلة فى الشعب، ورفض مبدأ السيادة المطلقة للحاكم التى كانت شائعة فى العصر الوسيط ، كما رفض أن يكون للملوك أى حق مقدس يبررون به حكمهم وإستبدادهم المطلق للشعب، دون أن يكون له أى حق فى إختيار من يتولى حكمه ، وبالتالى يسلب حقه فى المعارضة أو الثورة على من يتولى شئونه . يبدأ لوك فى وضع الأسس لقيام مجتمع مدنى يحفظ للأغلبية حقوقها . ويرى أنه لكى يقوم مجتمع سياسى مدنى يشعر أفراده بالأمن والاستقرار وصيانة حقوقهم الطبيعية فى الحياة والحرية والملكية يجب أن تتم الخطوات التالية :

أولا : لما كان قانون الطبيعة هو السند القوى الذى يحمى حقوق الأغلبية، فيجب إيجاد تفسير لهذا القانون (١) .

ثانيا : أنه لن يتم تحديد وتفسير لهذا القانون الطبيعى ، كما لن تتم فعاليته بدون إيجاد سلطة تقوم بتطبيقه ، وهذا يستلزم إيجاد سلطة Power تطبق هذا القانون Law مع أفراد الشعب بدون تفرقة بينهم .

ثالثاً : إن هذه السلطة لن تقوم بكامل وظيفتها فى تطبيق القانون ما لم تسندها قوة يكون لها مهمتين هما : تنفيذ أحكام القانون الطبيعى ، وحماية المجتمع من الخطر الخارجى .

---

1) AN Essay, civil Government, (Social and political philosophy, john Somerville p. 191 – 193.

بعد أن يعرض لوك لشكل الحكومة government [١] المدينة يقوم بتقسيم السلطات Powers إلى ثلاثة أنواع هى :

أولا ـ السلطة التشريعية : Legislative

وتمنح لممثلى الشعب الذين يحصلون على هذا الحق بطريق الانتخاب أو الوراثة .

ثانيا ـ السلطة التنفيذية : excutive

ويتحدد عملها فى تنفيذ القوانين التى يضعها الشعب عن طريق سلطته التشريعية وتتضمن القوانين الإدارية والقضائية .

ثالثاً ـ السلطة الفيدراليه : Federative

وتعمل على تكملة السلطة التشريعية وتتكون من مندوبين عن المدن [٢] « المقاطعات الانجليزية من الفرسان ورجال الدين ويتم تعيينهم عن طريق الملك وهم يمثلون الآن أفراد مجلس اللوردات » .

ويعلى لوك من قيمة السلطة التشريعية فوق جميع السلطات [٣] لكنه

---

١) تكرر لفظ الحكومة فى المقالة الثانية للوك ـ كما تكرر لفظ كومنولث Commonwealth واللفظ الأخير يعنى فى السياسة الإنجليزية حكومات يربطها الصالح العام أو رابطة أمم تحت العلم البريطانى ـ أو حكومة المملكة الحرة .

2) AN Essay, Civil government p. 185.

3) Ibid.

لا يمنحها قوة مطلقة لأنها مقيدة بالحفاظ على الحقوق الطبيعية للشعب و بنصوص العقد الإجتماعى .

و ـ المجتمع المدنى بين القانون ، والسلطة :

بعد أن قدم لوك لتصوره عن المجتمع المدنى والعقد الإجتماعى الذى يهدف إلى الحفاظ على حقوق الأفراد فى الحياة والحرية والملكية نجده يذكر فكرة القانون Law باعتبار أن صياغته والإلتزام بتطبيقه مما يحفظ قوانين الطبيعة، ويؤكد حق الحياة والعدالة والمساواة والحرية وحفظ ملكية المواطنين ، يذكر لوك فى المقالة الثانية من الحكومة المدنية إن القانون قد وضع لمصلحة المجتمع (١) ولتحقيق القانون الطبيعى ، فيجب على السلطات أن تعمل وفقا له فى حفظ وحماية حقوق الأفراد . ولكى يتم للوك هذا التصور كاملا كان عليه أن يقوم بفصل السلطات ، أى فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية بما يعنى أن لكل واحد منها إختصاصها المحدد التى تعمل فى حدوده ، بحيث يضمن لوك سلامة تطبيق القانون ، و إرساء دعائم العدل والمساواة ثم يفرد فى مقاله المبررات التي جعلته يقوم بفصل السلطات وهى :

أولا : إن وضع القوانين أو صياغتها يتم فى وقت قصير ، فى حين يظل تطبيقها وتأثيرها مستمراً ومعمولا به زمناً طويلا مما يستوجب وجود مجموعة من الأفراد تكون مهمتها متابعة تنفيذ القوانين والمحافظة على إستمرار فعاليتها ، ولما كان هناك إختلاف بين فى زمن وضع القانون ، وزمن تطبيقه

1) Two treatise on civil government.

2) Ibid.

إستلزم ذلك ، الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية .

ثانياً : إنه من غير المعقول أن يقوم من يضع القانون بتنفيذ بنوده فالأحرى بمن يضع القانون إستثناء نفسه من قيد تطبيقه مما سوف يترتب عليه التلاعب بمبادئه ، ووصفها بحيث تصلح لأغراضه فى المقام الأول ، أو تتوافق مع ميوله بحيث لايجد عناءاً فى تطبيقه أسوة بغيره من أفراد الشعب ، وفى هذه الحالة يصبح من يضع القانون أول المستفيدين بتطبيقه بحيث ينال من الحقوق والخيرات ما لا يناله غيره ، فلا يتحقق للمجتمع المدنى غايته فى الحرية والعدالة والحفاظ على الممتلكات ، لذلك رأى لوك ضرورة فصل سلطتى التشريع والتنفيذ .

ولا يعنى الفصل بين السلطات عند لوك أن يكون للسلطة التنفيذية سلطان مطلق، لأنها تخضع للقانون كما تخضع له السلطتان التشريعية والفيدرالية، وكما يرفض أن تكون للسلطة التنفيذية سلطة مطلقه ، فانه يمنح الثقة للسلطة التشريعية بالنظر إلى أهميتها وإستمدادها لبقائها من ثقة المواطنين ، ولذا فان للشعب الحق فى الثورة عليها أو تغييرها فى حالة عدم إلتزامها بمسئولياتها وتخليها عن العمل لمصلحة الأفراد . وهنا يلوح لوك بالثورة أو بحق الثورة للشعب إذا حدث مساس بمصالحه ، أو إهدار لحقوقه المنصوص عليها في القانون الطبيعى والعقد الإجتماعى . فللشعب مطلق الحرية فى الثورة ضد السلطة أو الحكومة وتغييرها إذا أخلت بمسئولياتها فى تطبيق قانون الطبيعة ، وأساءت إلى الشعب .

تعليق وتقييم

من خلال هذا العرض الموجز لفلسفة لوك السياسية يتضح إنه كان من أوائل الفلاسفة الذين نادوا بمبادىء المساواة والحرية . ففى مجال المساواة أنكر أن يكون للملوك أى حق مقدس موروث فى دمائهم يحكمون بمقتضاه الشعب حكما إستبداديا ، وبذلك أكد مبدأ المساواة بين جميع الطبقات الأسياد والعبيد ، الملوك والرعية . فالجميع يمتلكون نفس الحقوق التى وهبتها الطبيعة لهم فى الحياة والحرية والملكية ، وبقدر تأكيد لوك على مبدأ المساواة بين الجميع بقدر مناداته بحرية الإنسان الذى تصوره يولد حراً ، غير أنه يصبح مكبلا بالقيود فى كل مكان وزمان ـ فالحرية سمة من السمات التى يتميز بها الوجود الانسانى ، والدليل على أنها حق طبيعى للانسان فى الحالة الطبيعية والمدنية ـ فالحرية حالة طبيعية تميز الإنسان بصفة عامة . ولذلك عد لوك من بين المفكرين الأحرار ، بل من مؤسسى مذهب الأحرار فى العصر الحديث [١] وتشهد بذلك إسهاماته الكبيرة فى مجالات الحرية الفردية ، والمساواة مثل مذهبه فى الحقوق الطبيعية ، وفكرته عن العقد الإجتماعى الذى كفل به حقوق الحياة والحرية والملكية ، وأعلى من كلمة الشعب وإعطاه الحق الأول فى إختيار من يحكمه ، وفى الثورة عليه إذا لزم الأمر [٢] . كما كان مبدأ الفصل بين السلطات من بين الأفكار التى عمقت

---

(١) زكريا إبراهيم ـ مشكلة الحرية ـ مشكلات فلسفية ـ مكتبة مصر الفجالة ص ٢٥٢

(2) Ernest Barker ; Social Contract Locke . hume . rousseau London . N. Y. 1976 p 45

من مفهوم النظرية السياسية عند لوك ، وأكدت حقوق الأفراد ، ودعمت المساواة كما وضعت القوانين لمصلحتهم ، وامتد أثر مبدأ فصل السلطات عند فلاسفة السياسة فنجده واضحا عند مونتسكيو [١] (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) Montesquieu في كتابه « روح القوانين Esprit des loi » الذى نادى فيه بضرورة فصل السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية لترسيخ سيادة الشعب ، وتحقيق أهدافه ورفض التسلط والطغيان .

---

١ ــ مونتسكيو : (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) مفكر سياسى فرنسى ــ نادى بفصل السلطات ــ دعا إلى تدعيم الحريات ، وقال بوجود قوانين طبيعية تحكم سير المجتمعات .

(٢) «رسائل فى التسامح» وفصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية

رأينا فى الجزء السابق كيف مضى لوك إلى تأكيد مبادىء المساواة وحق الحرية بما عبر عنه فى مقالتيه عن الحكومة المدنية ، وفى رسائل فى التسامح Letters Concerning toleration يدافع لوك عن حرية الأفراد الشخصية فى العبادة .

وقبل أن نبدأ فى عرض أهم أفكار هذه الرسائل نشير إلى ظروف وتاريخ كتابتها وقد بدأ لوك كتابة هذه الرسائل فى عام ١٦٨٥ – ١٦٨٦ فقد أرسل خطابا فى موضوع التسامح إلى فيليب فان ليمبورخ Philip van Limdorch ونشر باللغة اللاتينيه فى عام ١٦٨٩ بعنوان Epistola de tolerentia ثم ترجمه وليم بوبل William popple (1) بعد ذلك إلى الإنجليزية تحت عنوان « أول خطاب فى التسامح » « First letter Concerning toleration » وذلك فى عام ١٦٩٠ إلا أن جوناس بروست Jonas proast وقد وجه نقداً لاذعا لرسالة لوك تحت عنوان « the argument of the letter Concerning toleratoin briefly Considered and answered » .

تأدى هذا الهجوم بلوك إلى الرد فى السنة التالية وذلك بنشر رسالته الثانية فى التسامح فى عام ١٦٩١ (٢) .. ثم ظهرت الرسالة الثالثة بعد ذلك عام ١٦٩٢ مزيده ومؤثرة ، ولما عاد بروسك إلى هجومه مرة ثانية بعد حوالى إثنى عشر عاما كتب لوك رسالته الرابعة غير أن الحظ لم يمهله فمات قبل أن تنشر .

(1) Maurice cranston, Locke on politics, religion and Education, N. two letter Concerning toleration p104

أ - موضوع رسائل فى التسامح :

يعالج لوك فى هذا المؤلف فكرة الحرية الإنسانية فى أبعد معانيها ، وذلك بالتأكيد على ضرورة الفصل بين السلطة الدينية أو الكنيسة Church والسلطة المدنية Civil government. حيث تمارس كل سلطة إختصاصاً معيناً لا دخل للأخرى به ، يقول لوك فى مهام السلطة المدنية : « إنه لما كان من واجب الحاكم المدنى Civil magistrate تنظيم شئون الناس فى الحرية والملكية والحياة (فى الصحة والأرض والمال والمسكن ووسائل الترفيه وما شابه ذلك) فهذه أمور تختص بها سلطة الدولة والقوانين ولا دخل للدين أو الإيمان فيها »[1] .

يشير لوك فى هذا النص إلى أن إختصاص السلطة المدنية ينحصر فى كل ما يتعلق بالمصالح المدنية ، والأمور المتعلقة بالحياة الشخصية ، ومن ثم فلا محل لتدخل السلطة الدينية فى شئونها ، لذلك فانه من الضرورى أن تنفصل القوانين التي تنظم مصالح الناس عن أى تأثير دينى عليها ، فتظل القوانين المدنية فى معزل عن تسلط الدين ويقصد لوك بذلك رفض أى تدخل أو تأثير للعقيدة المسيحية Christianity على القوانين المدنيه، لأنه من الضرورى أن تظل قوانين الدولة فى إستقلال كامل عن الإيمان الدينى Faith ، ولذلك فليس هناك وجود لدولة مسيحية لأن تشريع الدولة مستقل عن الشريعة المسيحية غير مقيد

1) F. Letter Concerning toleration, John Locke, Maurice Cranston, p.

بتعاليمها (١) .

والدولة الحقيقية عند لوك هي التي تلتزم بكفالة كافة الحقـــوق لجميع أفرادها بما في ذلك حرية العقيدة التي يمارسها الأفراد بأوسع معانيهـا ، لذلك فمن واجبات الحكومة أيضاً أن تجيز كل أنواع العبـــادة Worship الخارجية ، ولا تتدخل في توقيع الجزاءات على الأفراد ، والذين يقترفون الآثام إلا إذا أضرت بمصالح وحقوق الآخرين .

ويعرض لوك في الرسالة الأولى أسباب دعوته لفكرة التسامح Toleration في التالي :

الأول : أنه لا يجب على الكنيسة أن تضطهـــد أي إنسان بسبب عقيدته (٢) ، فالحرية مكفولة للجميع في مجال الاعتقاد ، وعلى الإنسان أن يؤمن بالطريقة التي يرغب فيها ، وبكل ما يملك من حرية ، وما يجب على الكنيسة ينسحب على الدولة (٣) التي يجب عليها ألا تجبر أفرادها على الدخول في مذهب معين ، أو حزب معين ، بل تكفل لهم حرية الإختيار التي هي ألزم لضمان أمنهم وسعادتهم داخل المجتمع المدني ، كما يجب عليها أيضا ألا تمارس الإضطهاد بين الأفراد أو التحيز Pre Judice لجماعة دون أخرى.

فالدولة والكنيسة يجب أن يعملا من أجل سعادة المواطنين في المجتمع

---

1) Letter, Maurice Cranston John Locke. onpolitics Religion and Education. p. 124.

2) Letter Concerning toleration. 103 – 109.

٣) Ibid.

وذلك بنشر التسامح والمحبة لأنهما قوتان مستقلتان تمثل الدولة ترابطاً سياسياً خرافياً فى حين تمثل الكنيسة ترابطاً دينياً حراً يعمل فى ظل الدولة .

الثانى : أما السبب الثانى فيعنى به لوك أخطاء التأمل ، فالإنسان يكون عرضة للخطأ حين يفكر نظرياً أو يتأمل أفكاره ، وما يستتبع ذلك من غموض المعرفة الروحية ، لذلك فانه يتعذر مهاجمة من يخالفوننا فى الاعتقاد لعدم وضوح المعرفة بالبرهان ، ومن ثم يجب أن يسود التسامح بين الأفراد .

وعلى الرغم من إتقان لوك فى عرضه لأسباب التسامح ، وتأكيده على الحرية الشخصية ، وتمييزه لسلطة الحكومة عن السلطة الدينية ، بل وفصلها إلا إننا نجده يخل بمبدأ التسامح العام حين يستثنى منه عدداً من الفئات مثل الملحدين أو غير المؤمنين[١] Atheists ، والأشخاص المؤمنين الذين يدينون بالولاء لسلطات خارجية ، وكذلك الأفراد الذين يطلبون التسامح من الآخرين وهم فى نفس الوقت لا يطبقون هذا المبدأ على أفعالهم فلا يتسامحون مع معارضيهم[٢] .

1) Letter Concerning toleration. p. 139.

2) Letter Concerning toleration, p. 140.

الفصل السادس

الفلسفــة الأخلاقيــة

تمهيـد

أسبـاب السعـادة

أولا : الصحة

ثانيا : السمعة الطيبة

ثالثا : المعرفة

رابعا : فعل الخير

خامسا : الأمل فى السعادة الأبدية واللامعقوله

تمهيد

إتسمت الفلسفة الأخلاقية عند لوك بالنزعة العملية التجريبية ، تلك النزعة التي انسحبت على سائر أجزاء فلسفته كالمعرفة والسياسة .

كان لوك قد شرع حقيقة في تأليف كتاب في الفلسفة الأخلاقية Moral philosophy غير أنه لم ينتهي منه ، بل ربما لم يبدأ أصلا في كتابته (١) لكنه كان مهتما بكتابة مذكرات خاصة في الأخلاق منذ عام ١٦٦٨ وكان يبلغ من العمر السادسة والثلاثين وظهرت هذه الرسالة القصيرة متضمنة لآرائه الرئيسية في مسألة الفضيلة والسعادة ، وقد حفظت هذه الرسالة في مكتبة بودليان Bodleian ثم طبعت لأول مرة بعد ذلك في أكسفورد Oxford ، وفي عام ١٩٢٧ ظهرت نفس الرسالة في طبعتي لندن ونيويورك New York Macmillan Londen Congmans (٢) .

عرض لوك لمؤلفه « رسالة مختصرة عن السعادة » ANote on Happiness متضمنة لخلاصة أفكاره العملية عن الأخلاق فيذكر في بداية الرسالة أن تحقيق السعادة هي غاية كل إنسان من حياته ، ولا يتم ذلك إلا باتباع الأسلوب الأمثل للحياة والسير في وفاق مع القيم والمبادىء الإنسانية .

---

1) Maurice Cranston ANote on Happiness p. 195.

(2 Ibid.

١ ـ أسباب السعادة :

يعرض لوك للاسباب الخمسة التي تؤدى إلى سعادة الفرد الحقيقية وهى أسباب تتوقف على سلوك الإنسان وشخصيته ، وعلى مقدار ما يفعله من سلوك من حيث أنه قد وهب من الملكات والقدرات ما يمكنه من تحقيق البهجه والرضا فى حياته العملية [1] .

ويعرض لوك في رسالة عن السعادة للأسباب الخمسة التي تؤدى إلى تحقيق السعادة وهى :

أولا : الصحة Health :

إن المحافظة على الصحة الشخصية هدف يسعى إليه كل إنسان ، فالصحة الجسمية هى أساس الصحة النفسية [2] التى تبدو واضحة فيما يبدو على الفرد من بهجة وما يشعر به من سعادة .

ثانيا : السمعة الطيبة Reputation

تعد سمعة الإنسان الحسنة ، ومقدار ما يتمتع به من قبول وحب اجتماعى من أسباب سعادته [3] .

ثالثا : المعرفة Knowledge :

يربط لوك بين الحصول على المعرفة والإحساس بالسعادة فليس

---

1) A Note on Happiness p. 145.

2) A Note on Happiness p. 146.

3) Ibid.

يستغرب على فيلسوف العقل والتجربة أن يتصور أن من بين أسباب سعادة المرء هو حصوله على المعرفة لأن أقل قدر من المعرفة يحصل عليه الإنسان قد يجعله سعيداً لذا يجب عليه أن يتزود منها . ولا يقف عند حد (١) .

رابعاً : فعل الخير Doing good

يعد فعل الخير من بين الأسباب الرئيسية التي يجد فيها الإنسان سعادته القصوى ، والفعل الطيب عمل يجب أن يقوم به الخيرين من الناس فانه لا يشعر بالسعادة إلا كل من هو خير ويفعل الخير لذاته (٢) .

ويسهب لوك في تفسير هذا الموقف فيذكر أن أكلة لحوم شهية قد تشبعه ، غير أنها قد تؤذى صحته إذا أكل بشراهة ، كما أن الرائحة الذكية التى قد يتنسم عبيرها بالأمس قد لا تسعده اليوم ، لأن الآثار الوقتية المصاحبة لأى عمل حسى لا تتعدى حدود الزمان والمكان ، بحيث لا تترك أى أثر أو معنى مبهج فى ذاكرة الإنسان ، لكن فعل الخير يدوم طويلا ، يقول لوك « يدوم فعل الخير الذى أقوم به الأمس واليوم ، وأيضاً هذا العام ، ويظل تأثيره فياضاً مستمراً لسبعة أعوام مقبلة ، يغمرنى بالسعادة كلما تذكرته »(٣) .

---

1) Ibid.

2) Maurice Cranston, Locke on Politics, Religion and Education, A Note on Happiness p. 146.

٣) Ibid.

خامساً : الأمل فى السعادة الأبدية والمبهمة .

The expectation of etern l and incomprehensible. happiness

يذكر لوك فى « رسالة عن السعادة » إلى أن أمل الإنسان فى السعادة الأبدية الموجودة في العالم الآخر يعد أحد أسباب شعوره بالسعادة والبهجة الدائمة فى حياته [1] . ويكفى أن يعمل الإنسان بمقتضى مبادئه وتعاليم دينه حتي يشعر بالسعادة لتوقعه السعاده الأبدية التي سوف ينالها فى العالم الآخر .

قدم لوك لهذه الأسباب الخمسة التي تؤدى إلى سعادة الأفراد — ونحن نلمح من خلالها إتجاه عملى صرف ، وإيمان خالص بأن نجاح الإنسان وسعادته لا يتحققان إلا بتوجيه الإنسان إلى السلوك الأمثل فى المحافظة على صحته والإنخراط فى الجماعة وتقبلها ، وحسن السير والسلوك ، وفعل الخير ، وإتباع تعاليم الدين وأداء شعائره أملا فى سعادة الآخره .

ويمكننا أن نلحظ على مذهب لوك فى الأخلاق ما يأتى : —

أولا : إن النزعة العملية والتجريبية ، كانت هى السمة الغالبة على آراء لوك فى موضوع الأخلاق ، وليس بمستغرب أن تتسم فلسفة الأخلاق بالنزعة العملية التي انسحبت على نسق لوك الفلسفي برمته .

ثانياً : إن العوامل الخمسة التي تتسبب فى سعادة الإنسان التي ذكرها لوك فى رسالته تكاد تقترب من دراسات علم النفس الحديث الذى يبحث في

---

1) Ibid.

الشخصية السوية من خلال اشارته إلى الصحة الجسمية وما يستتبعها من الصحة النفسيه ، وكذلك أثر الروح الجماعيه والإنخراط في المجموعة على الحالة النفسية ، والأثر النفسى لحسن السمعة فى الشعور بالسعادة ، وما يستتبع عمل الخير من الشعور بالبهجة الدائمة .

ثالثاً : يرى لوك أن الخضوع لما عليه العقل من طاعة القانون الإلهي (الذى وضعه الله قبل الإنسان) والإمتثال لأوامره التى تتفق مع الطبيعة البشرية يعد من أسباب السعادة الروحية التى توحى الانسان بنيـــل السعادة الأبدية فى العالم الآخر ، وهو يتفق فى ذلك مع الدراسات النفسية التى ترى أن الإيمان واليقين الفردى يؤديان إلى شعور الانسان بالبهجه والسعادة والأمن النفسى ، كما يتفق فيها مع آراء الفلاسفة العقليين المسيحيين أمثال ديكارت ومالبرانش وبسكال وكذلك ليبنتز ، فقد ذكر هؤلاء الفلاسفه فى مباحثهم الأخلاقية مسألة تحقيق السعادة والخير الأزلى فى عالم الآخرة ، وأن على الإنسان أن يحيا على أمل الآخرة أو الأبدية السعيدة eternité Bien heureuex (1)

١) كان لوك مسيحياً مؤمناً تحدث عن قدرة الله الذى يبصر الناس بواسع علمه فيعاقبهم ويثيبهم ، كما يمنحهم العقل الذى يستطيعون به أن يتعرفوا بالبرهان على حقائق الأخلاق ، ويهتدون إلى مبادىء الدين وتعاليمه أيضا . ويختلف هـذا المنهـج العقلى الذى يصل إلى حقائق الأمور عن طريق البرهنة عن نظرية ديكارت عن الحقائق الابدية الموجودة فى العقل ، والتى هى حقائق الرياضة والأخلاق والدين التي ألهم الله الانسان إياها عـــن طريق عقله .

رابعاً : على الرغم من ظهور النزعة العملية فى رسالة لوك عن السعادة ، إلا أنه يحاول من جهة أخرى إقامة علم نظرى للأخلاق يتطابق مع الرياضيات النظرية ، وهكذا تتحول الأخلاق من مجال الدراسات العملية إلى مجال الرياضيات البحتة فتصبح المبادىء الأخلاقية موضوعاً للمعرفة البرهانيه التي تتميز بالدقة على غرار العلوم الرياضية ولهـذا فان لوك ينظر إلى علم الأخلاق باعتباره علماً ممكناً ، وهذا يعنى إستقلال معرفتنا الأخلاقية عن تجربتنا الواقعية فتصبح المعرفة بالأخلاق كالمعرفة بالرياضيات ، حيث أن الأمر يتعلق بالأفكار المجردة دون الرجوع إلى أية وقائع [1] .

يتبين لنا مما سبق كيف اتجه لوك اتجاها عمليا تجريبيا فى بعض أجزاء فلسفته الأخلاقية غير أنه عاد بعد ذلك وأقام للأخلاق علماً نظرياً ، وهكذا فلم يستطع الإستغناء عن الجانب النظرى فى تأسيس الأخلاق ، كما فعل ذلك فى بناء نظرية المعرفة التي اعتمدت على جانبي الحس والعقل ، أو التجربة والحدس .

---

(١) الدكتور على عبد المعطى محمد ـ تيارات فلسفية حديثة ـ دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤ ص ١٤٣ .

الفصل السابع

النظرية التربوية

تمهيد

١ - آراء لوك فى التربية

* تعليق وتقييم

تمهيد

وضع لوك نظرية عملية سديدة في مجال التربية ، كان يهدف منها إلى تطوير نظام التعليم باستحداث طرق جديدة ومبتكرة ، وإهتم في وضعها بالدفاع عن الحرية الشخصية للأفراد ، وتحرير الأفكار من التقاليد القديمة - والمطالبة باستقلال التعليم عن سلطة الكنيسة والحكومة . والعمل على نقل الممارسة التعليمية من المدارس والكنائس إلى المنازل ، كما وضع بعض المبادىء والنظم التي ينبغي على المدرسين اتباعها مع الدارسين من الأطفال والشباب ، بغرض تنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية عن طريق توسيع مداركهم، وتشجيع موهبتهم وتعليمهم المهارات والعلوم الحيوية النافعة ، كما رأى أن يتم التوجيه والإرشاد بطريق الفعل الطيب والقدوه الحسنة .

١) آراء لوك في التربية :

وضع لوك خلاصة آرائه التربوية العملية في عام ١٦٩٣ في كتابه « آراء في التربية » « Some thoughts Concerning Education » . وهو يمثل مجموعة من الرسائل التي أرسلها أثناء إقامته في هولندا لصديقه كلارك E. Clarke ، (١) وهي تتضمن خلاصه أفكاره التربوية ومقترحاته في تربية الأطفال والشباب ، وتعليمهم وفق طرق ومناهج عملية جديدة تتوافق مع ظروفهم وميولهم حتى يتمكنوا من مواجهة حياتهم عند الكبر رجالا أسوياء على علم وخلق .

---

1) Aaron. R John Locke – Second Edition – oxford clarendon Press 1955, IN Education and Religion – 287.

وسوف نعرض فى عجالة لمجمل آرائه فى التربية : —

١ — أراد لوك بمقترحاته في التربية أن يغير من نظام التعليم الذى كان متبعاً فى المدارس فى عصره ، فرأى أن تعليم الطفل المواد النظرية كالبلاغة [١] والمنطق وكذلك اللغات كاليونانية والعربية والعبرية لا جدوى منها ، ويجب إستبدالها بدراسة ذات فائدة وقيمة ، فيقول إن تعليم اللغتين اللاتينية واليونانية لا يستفيد منه إلا فئة معينة من أبناء الشعب الإنجليزى ، وهو يقصد بهم (السادة Gentlemen) بينما تصبح عديمة الجدوى بالنسبة للغالبية العظمى من أبناء الشعب ممن يشتغلون بالتجارة أو الزراعة أو أية حرفة لا يمثل تعلم اللغات أهمية بالنسبة لها ، ومن ثمة تصبح دراسة اللغة عبئاً على كاهل التلميذ فى المدرسة باعتبارها دراسة نظرية لا يستفيد منها فى الحياة العملية إلا القلة من السادة الإنجليز .

٢ — أراد لوك أن يغير من الدراسات القديمة الرتيبة التى كانت تفرض على التلاميذ مناهج تدريس الشعر والنثر ، واقترح استبدال هذه المواد الدراسية بعلوم ومواد أخرى أكثر عملية كالتاريخ والجغرافيا والفلك والطب والتشريح [٢] وهى علوم تساعد التلميذ على النجاح فى الحياة العملية ، وتطلعه على أحدث منجزات العصر فى العلوم الطبيعية .

٣ — اهتم لوك بالدراسة العملية للتلميذ فناشد المعلمين الاهتمام بعمل

---

١) كانت البلاغة Rhetoric مع الشعر والنثر من بين المواد الدراسية الهامة التى كانت تدرس فى المدارس فى هذا العصر .

2) Aaron. p. 287.

الرحلات المستمرة إلى البلاد المجاورة تنمية لمعلومات التلميذ ، وتوسيعاً لمجال خبراته ، ورداً على استفساراته عما يشاهد ويسمع [١] .

وفضلا عن تزويد التلميذ بالمواد العملية فقد رأى لوك أن يبدأ التعليم بتعليم الشباب الأبحاث النظرية كالحساب والجبر والفلك ، وبعد ذلك يتعلم الشاب قليلا من القانون المدنى والأخلاق ، ثم تكتمل دراسته بعد ذلك بمقدمه فى الفلسفة الطبيعية للفيزيقا والميتافيزيقا ، ولا يعنى ذلك أن الشاب سوف يكون متخصصاً فى جميع هذه المجالات ، بل يعنى أنه سوف يحصل معرفة عامة وعميقة عنها لقضاء حاجاته الشخصية [٢].

وقد شجع لوك هواية السفر والترحال ، فذكر أن السن المثالية للقيام بالأسفار تبدأ من السادسة عشر حتى سن الواحدة والعشرين . وللأسفار فائدتان : الأولى هى تعلم اللغة الأجنبية ، أما الثانية فهى الدراية بخبرات الشعوب ، والوقوف على فهم لأحوال السياسية والاجتماعية التى يعيشون فى ظلها ، كما ينصح بأن يبدأ السفر لتعلم اللغة في سن متأخرة على أن يكون السفر فى سن مبكرة لتحصيل المعارف والخبرات [٣] .

واقترح لوك أن تخصص فترات الراحة Recreation بين الدروس الجادة والهامة فى تعلم الفنون arts والحرف Crafts ، مثل الشعر والموسيقى مما يحقق للشباب المتعة الروحية والفائدة الشخصية ، كما ترهف شعورهم وأحاسيسهم ،

---

1) Ibid. p. 290.

2) Aaron p. 290 – 291.

3) Aaron. p. 291.

وتعمق فهم المشاعر النبيلة [١] .

ولم تقتصر توجيهات لوك وتوصياته فى مجال التربية على تنمية الجوانب العلمية والعملية فحسب ، بل تعدت ذلك إلى الجوانب الأخلاقية فنراه يؤكد على أهمية تنمية الفضائل الأخلاقية والإجتماعية فى نفس الطفل منذ تربيته الأولى ، فالتربية السليمة قوامها العلم الجاد ، والخلق القويم فالرجل العالم يجب أن يكون على خلق متسام ، وأن يتحلى بالفضائل الجيدة مثل الشجاعة والمروءة والشرف والتضحية وإنكار الذات ، كما ينبغى أن يكون هادىء الطبع مثابراً ، حلو المعشر ، حسن العادة .

ويرى لوك أن صفات الصبر والمرونة لن تتأتى للفرد دون مزاولة التمرينات الرياضية ، فهى التى تمثل التربية بالنسبة للجسم ، فالعقل السليم فى الجسم السليم ، فالحركات الجسمية والدراسات العملية ، والتمرينات الجمعية تساعد الطفل منذ الصغر على الصبر وتحمل المشاق ، كما تغرس فيه روح المسئولية والإيثار والمرونة والحيوية [٢] .

وتخطت نظرية لوك في التربية مجالى العلم والتربية الرياضية إلى مجال علم النفس إذ يوجه نداءا للمعلمين بعدم استخدام العصا فى أثناء مزاولة مهمتهم حيث أن العقاب المستمر والقسوة الزائدة من عوامل إعاقة التربية والتحصيل الجيد ، وكان يرى ضرورة الإبتعاد عن العقاب الصارم [٣] .

---

1) Ibid.

2) Aaron 291

3) Ibid.

ويرى أن أفضل الطرق لتربية الأطفال طريقة إتباع مبدأ « القدوة الحسنة » بدلا من ترديد النصائح والقواعد الأخلاقية على مسامعهم (١) .

مما سبق يتبين لنا كيف قدم لوك نظرية لها أهميتها فى مجال التربية أفاد منها الباحثون فى عصره مثل جان جاك روسو Rousseau الذى تناول نظرية لوك فى التربية وطورها وعدل فيها وأخرجها فى مؤلفه الشهير فى التربيـــة « إميل » Emile الذى حاز قبول واستحسان المهتمين بالتربية فى عصره يقول ريتشارد آرون « لا يوجد كتاب للوك حازت قراءته وأهميته شهرة عريضة أكثر من (آراء فى التربية) حتى لقـــد أصبح لأهميته جزءاً من النظرية التربوية العامة لبلده ، ولبلاد كثيرة فى العالم الأوربى وقتذاك » (٢) .

---

1) « The Successful teacher does not need to compel and the use of Force for instance in Corporal punishment is a sign of failure on the teacher's part. A good teacher will teach much by example and by suggestion ».

2) Aaron, Locke. p. 55.

* تعليق وتقييم :-

بعد عرضنا لنظرية لوك ، أو لآرائه فى التربية نجد أنفسنا أمام نظرية متكاملة فى العلم والعمل ، فى مناهج العلم ومناهج التربية ، فى الفن والحرفة ، فى التربية البدنية ، والتربية الروحية ، وفى الأخلاق .

إن آراء لوك فى التربية تبرز جانبين هامين فى عصره هما الجانب العملى التجريبى الذى ظهر بوضوح فى جميع المجالات وتميز به عصر العلم والإختراع الذى عاش فيه الفيلسوف ، والجانب الفردى الذى انصب على الإعلاء من قيمة الذات الإنسانية والتأكيد على حرية الإنسان وكرامته ، وإتاحة فرص الحياة الفاضلة أمامه ومعالجة مشكلاته النفسية والإجتماعية باستخدام أحدث ما وصلت إليه أبحاث العلم فى جميع المجالات .

لقد كان الإهتمام بالجوانب العملية والعلمية وتعليمها للتلاميذ فى المدارس بمثابة إسهاماً من لوك فى تطبيق نظرية المنهج العملى مسايرة لروح العصر ، وتنمية للعقل العلمى التجريبى .

كما أن توجيه طاقة الإنسان فى وقت الفراغ إلى ممارسة الفن مثل الشعر أو الموسيقى إنما يعطى مؤشرا إلى إهتمام العصر بالفنون ، وإفساح المجال أمام العاطفة السامية التى يثريها الفن الرفيع .

إن الإهتمام بالجانب الأخلاقى كمبدأ فى التربية دليل على أهمية الجانب الأخلاقى والروحى فى المجال التربوى .

كما أن محاولة تربية الطفل بدون تخويف أو إرهاب إنما تعد إشارة إلى مدى إستفادة لوك من تطبيق مناهج علم النفس الحديث المتعلقة بموضوع الشخصية ، فالشخصية السوية فى تصوره هى التى تتمكن من تحصيل العلم بدون ضغط أو إرهاب ، كما أن اتجاه القدوة والتأسى فى مجال التربية أفضل بكثير من إسداء النصح والارشاد النظرى للدارسين .

الفصل الثامن

الدين

تمهيد :

١ ـ الله : وجوده وصفاته .

٢ ـ إثبات وجود الله .

٣ ـ صفات الله :

تمهيـــد

كانت إهتمامات لوك بالمجال الدينى لا تقل أهمية عن إهتماماته بجوانب فلسفته الأخرى فى المعرفة والسياسة والأخلاق والتربية .

وإذا كانت الرؤية العملية والتجريبية قد إنسحبت على فلسفته برمتها ، فان الدين لم يستثن من هذه الرؤية كذلك ، فقد ظهرت أفكاره فى كتابه « معقولية المسيحية » وهى تنطوى على النظر الى الدين من خلال العقل ، أو محاولة النظر الى معطيات الدين والوحى من منظور العقل والمنطق ، ومن آرائه فى هذا المؤلف انه يجب النظر إلى الدين المسيحى نظرة عقلية ، وأن حقائق الوحى Revelation يجب أن تختبر بمحك عقلى ، ذلك لا يعنى الإيمان المطلق بمعطيات العقل وحده ، أو رفض معطيات الوحى الدينى ومطالب العقل الإنسانى .

ويذكر لوك في معقولية المسيحية إننا لو استطعنا أن نفهم أصل الدين للمسيحى خالصاً فسوف نجـده لا يتعـدى كونه تبريراً للايمان [١] Justification by Faith وسوف لانجد اعتراضاً كبيراً أو خروجاً على هذه القاعدة العامة التي فسرها الكثيرون عن « الدين المسيحى » .

1) Aaron: p 296.

١) الله : وجوده وصفاته : ـ

الله في تصور لوك هو الجوهر الإلهي (الجوهر الروحي اللامتناهي) ، لكن جهل الإنسان بماهيته تجعله يركب عنه فكرة من خلال أفكار الوجود والمعرفة والقوة والسعادة واللانهاية والخلود ، والإنسان يجهل وجود الله لأن معرفته غير فطرية ، ومن ثم فهي تحتاج لبرهان عقلي لكن العقل من جهة أخرى قاصر عن إدراكها .

ويرى لوك أن معرفة الله ليست فطرية لجهل الناس بماهيته ، وقصور العقول عن إدراكها ، فضلا عن وجود الملحدين .

٢ ـ إثبات وجود الله :ـ

يحاول لوك إثبات وجود الله بالإستناد إلى ضرورة التسليم بوجود الأزلي القديم إستناداً إلى وجود الحادث المخلوق معلولاً له ، فكل موجود حادث جزئي لابد له من موجود قديم كلي خلقه ، ويلاحظ أنه قد برهن في هذا الدليل على وجود الله وماهيته في نفس الوقت ، كما إستخدم فيه مبدأ العلية ، وكذلك فقد عبر عن فكرة مركبة غير موضوعية .

٣ ـ صفات الله :ـ

يعرض لوك في مؤلفه فكرة وجود الله عرضاً عقلياً تجريبياً أو واقعياً إذا جاز لنا هذا التعبير ، فهو يقول عن الله : « إننا لا نستطيع مجرد الأمل في معرفته كاملا كما هو كائن فعلا ، لكننا نكون صورة أو فكرة عنه فحسب ، هي فكرة مركبة Complex idea [1] مثل جميع الأفكار المركبة .

---

1) Aaron, p. 301.

ونحن نتصور في الله جميع صفات الكمال والخير ، وهي ليست صفات كالتي نتصورها فيما بيننا .

الله واحد لا متناه خالد محط لكل سعادة وبهجة حقيقية ، عالم بكل شيء ، يكمن فيه الخير الكلي والقدرة الكافية ، غير أننا لا نملك فكرة يقينية أو مؤكدة عنه فعندما نقول أن الله خير فاننا نعني بذلك أنه أعظم خير نعرفه من كل ما حولنا من أنواع الخير ، وعندما نقول أنه حكيم فاننا نعني بحكمته أنها أسمى من أى حكمة عرفناها بيقين [1] .

أنه لا يوجد تصور يقيني عن فكرة الله ، كما أن فكرتنا المركبة عنه تعد بعيدة عن الواقع ، إن الله في طبيعته الحقيقية يجب أن يكون مختلفاً عن أسمى تصور لنا عنه . إن ذلك شيء لا يدعو للعجب حتى إذا ذكرنا جهلنا بمعرفة ذواتنا نفسها .

إن الله غير معقول ولا يمكن تصوره عقليا [2] ، ولا يمكننا أن نعرف عنه سوى قوة الحضور في حياتنا ذلك الحضور الذى نستمد منه القوة والأمان [3] .

وسوف نعرض فيما سيأتي لأهم الأفكار التي تناولها كتاب لوك « معقولية المسيحية » محاولين إلقاء الضوء عليها وتحليلها من خلال نسقه الفكرى من ناحية ، ومن خلال التيارات الروحية والإجتماعية السائدة في عصره من ناحية أخرى .

---

1) Aaron, 301.

2) Ibd.

3) Ib·d.

الفصل الثالث

فلسفة الدين

أو

« معقولية المسيحية »

رؤية تحليلية

* تمهيد :

١ - موقف لوك من مسألتي الخطيئة والفداء .

٢ - موقف لوك من المعجزات .

٣ - القانون الإلهي هو ناموس العقل ، أو الناموس الطبيعي .

٤ - موقف لوك من الدين .

٥ - لوك بين الفلسفة والدين .

٦ - الدين منبع الأخلاق .

٧ - المعرفة والنور الفطرى .

٨ - الفضيلة بين الفلسفة ، والدين الخالد .

٩ - الدين والحياة الخيره .

١٠ - الدليل على الدين .

* فلسفة الدين بين مذهب لوك العملي ، ومذاهب الفلاسفة العقليين .

معقـــولية المسيحية

كما وردت بالكتب المقدسة

The Reasonableness of Christianity as Delivered in Scriptures.

رؤية تحليلية

معقـــولية المسيحية
كما وردت بالكتب المقدسة

The Reasonableness of Christianity
As Delivered in the Scriptures.

تمـهيد :

لقد استمرت النزعة اللاهوتية في سيطرتها على الأفق العقلي حتى بعد عصر النهضة الأوربية ، وإلى القرن السابع عشر لهذا نجد أن المشكلة الأساسية التي واجهت فلاسفة هذا العصر إبتداءاً من ديكارت . ومروراً بمالبرانش وبسكال وليبنتز في فرنسا ، ولوك في انجلترا كانت هي كيفية تبرير الموقف الديني عقلياً ، أو بمعنى آخر محاولة التوفيق بين النقل والعقل ، بين الدين والفلسفة .

والسبب في تأزم هذه المشكلة هو أن نفس الموضوعات التي يعالجها الدين مثل الوجود والذات الإلهية ، والخلق ، وكذلك فعل الإيجاد ومشكلة الإنسان ، ومعرفته كانت هي نفس الموضوعات التي عالجتها الفلسفة أيضاً ، فليس هناك انفصام كامل بين موضوعات الفلسفة ، وموضوعات الدين إلا فيما يختص بأسس العقيدة المسيحية نفسها . وحتى هذه الأسس وأهمها فكرة التثليث كانت تظهر بطريقة رمزية في كتابات بعض الفلاسفة . أما مشكلة الخلاص والنعمة الإلهية . فقد ظهرت بوضوح في كتابات الفلاسفة في هذه الفترة المعاصرة ، ولهذا لم يكن غريبا أن يتصدى فيلسوف حسى تجريبي مثل لوك لكي يعرض أطراف هذه المشكلة ، أى الصلة بين العقل والنقل ،

وأعنى بها بين الفلسفة والدين فيحاول أن يبين أصالة الدين فى موضوع السلوك الانسانى أى الأخلاق ، فكأنه بذلك يريد أن يقول أن للقانون الأخلاقى ، وقواعد السلوك الأخلاقى التى تستند إلى هذا القانون العـــام ، ولا سيما فكرة الواجب الأخلاقى . والإرادة الحرة فى مجال الأخلاق ، إنما تستند الى أوامر الكنيسة ، وكأنها وضعت تماماً بمعرفة اللاهوت الكنسى . وهذا الموقف تبشر به البروتستانتية التى كانت وراء مذاهب الأخلاق فى انجلترا ، كما ظهرت عند كانت فى ألمانيا ، وكأن ما انطوت عليه هذه المذاهب من أفكار يعد رداً على مواقف أصحاب عصر الإنارة الذى سيأتى فيما بعد فى القرن الثامن عشر ، وكذلك فى كتابات المفكرين الأحرار العلمانيين الذين يرون أن الأخلاق ودستورها إنما ينبعان من صميم فطرة الإنسان عند أصحاب الفطرة ، أو من خلال التجارب الأخلاقية المعاشة عند الحسيين . وعلى هذا النحو نرى أن موقف لوك الذى كان يجب أن يستمد أصوله من مواقف هؤلاء التجريبيين الحسيين فى مجال الأخلاق نجده يتأثر باللاهوت المسيحى (١) ويرجع مبادىء الأخلاق والقانون الخلقى بصفة خاصه إلى مجال اللاهوت أو الميتافيزيقا التى قد تتعارض مع موقف لوك الفلسفى الحسى .

وسوف نحاول فى هذا الفصل أن نعرض الكتاب لوك الرئيسى فى

---

(١) ليس مستغربا أن يظهر هذا الموقف عند لوك الذى تلقى تعليمه باكسفورد فى عام ١٦٥٢ ؛ حيث استقى تعاليم الأرثوذكسية الفلسفية العنيفة ، الخالية من كل حياة ، والتى كانت تسود فى عصره ، وكان من الطبيعى أن يتأثر بها حتى مع مقته الشديد لها .

الدين . أو فى « فلسفة الدين » إن صح هذا التعبير وهو كتاب « معقولية المسيحية كما وردت فى الكتب المقدسة » فنقوم بترجمة أهم فقراته الرئيسية محاولين تحليلها ، والتعليق عليها فى نهاية الترجمة .

أما الهدف من عرض هذا الموضوع فهو الوصول الى كيفية تصور لوك لمعقولية المسيحية حيث سيتبين لنا من خلال مطالعة نصوص هذا الكتاب دفاعه عن المسيحية ، وتأكيده لدور العقل من جهة أخرى ، ثم تبرير الدين بالعقل ، وهو الهدف الأساسى من كتابته .

وقد حاولنا خلال الترجمة تقسيم موضوع الكتاب الكلى إلى عدد من الفقرات ، كما اخترنا عناوين مناسبة لها تتفق وما ورد فيها من موضوعات كتبها الفيلسوف بالانجليزية بأسلوب ممتزج بالحماس الدينى تارة وبروح الفلسفة تارة أخرى ، وقد بدأنا هذا الفصل بعرض مقدمة لظروف كتابة الكتاب . ولتاريخ صدوره ، ثم تابعناه بالعناوين التى اقترحناها فى الموضوعات التى تم ترجمتها وهى على الوجه التالى : —

(١) موقف لوك من مسألتى الخطيئة والفداء .

(٢) موقف لوك من المعجزات .

(٣) القانون الإلهى هو ناموس العقل ، أو الناموس الطبيعى .

(٤) موقف لوك من الدين .

(٥) لوك بين الفلسفة والدين .

(٦) الدين منبع الأخلاق .

مقدمة الكتاب :-

وضع لوك كتابه « المعقولية » إثر عودته إلى انجلترا وذلك في عام ١٦٨٩ ، وبعد مرور عدة سنوات اكتسب منها بعض الخبرة بعد استقرار الثورة .

وقد اتفقت آراء لوك المتعلقة بالتسامح الديني Religion Toleration مع آراء بعض الأساقفة ، على الرغم من أن هذه الفكرة لم تكن قد ازدهرت بعد باعتبارها الأمل المنتظر في مملكة ويليام وماري الجديدة .

ويعد كتاب « معقولية المسيحية » هو الكتاب الرئيسي للوك الذي عرض فيه وجهة نظره في عقيدته المسيحية ، وصلتها بالفلسفة ، كما طرح فيه بعض القضايا الرئيسية التي تناولتها المسيحية .

وكان الهدف من نشر هذا الكتاب هو إبراز حقيقة إيمانه المسيحي ومحاولة تفسير العقيدة ، مثلما تفسر حقيقة أي علم من العلوم مثل علم الهندسة ، كما أراد في الوقت ذاته البرهنة على أن عقيدته لا تمثل قانونا أو عقيدة متعصبة أو عاطفية .

١ — موقف لوك من مسألتي الخطيئة والفداء :

« تتضح العقيدة المسيحية بشكل كبير عند دراسة العهد الجديد الذى يبرز فيه مذهب الفداء ، ذلك المذهب الذى يقوم عليه الانجيل ، وهو الذى يفترض سقوط آدم ، إلى أن جاء السيد المسيح عليه السلام ، واستطاع أن يفتدى الانسان .

ولقد اعتقد البعض أنه قد قدر لذرية آدم أن ترسخ تحت وطأة المصير المعذب للخطيئة الأصلية ، وأنها قد كتب عليها الهلاك « الفناء » من خلال عقاب مطلق لا متناهى ، ذلك على الرغم من أن الملايين لا تعلم عنها شيئا ، كما أن البعض الآخر لا يعتقد فى وجود فداء لهذه الخطيئة لأنها تحط (تنقص) من قدر الإنسان ومن ثم فقـــد أرسل الرب يسوع المسيح لاستعادة مكانة الانسان أمام الرب ، ولكى يوعظ ويبشر بدين طبيعى خالص ، .... على ما تبينه كتب العهد الجديد .

وخلاصة هذه المسألة هو تفويض الأمر برمته إلى عدالة السماء لأن رأى الفريقين يبين لنا أنهما قد تعديا فى موقفيهما كلمات الرب المكتوبة ، وأن هذه الكلمات ليست سوى مجموعة من الكتابات التى صنعها الرب لمساعدة الغالبية العظمى من الأميين من بنى الانسان لكى يوجههم إلى طريق الخلاص بطريقة ضرورية سهلة الفهم من خلال المعنى البسيط المباشر للكلمات والجمل المتبادلة بين أفواه المتحدثين الذين يستخدمونها عن طريق اللغة الخاصة بالعصر والبلد الذين يعيشون فيه .. إن هذه هى الأمور الهامة التى تقـــوم عليها الأنظمة الإلهية طبقا لمثل هذه الأفكار .

إننى لم أبحث كثيراً فى مسألة الخطيئة أو العقاب الذى فرض على ذرية

آدم ، لأنني أعتقد أنها ترجع إلى عدالة الرب التي سبق أن ذكرتها . ومع ذلك فيبدو أن ثمة أسلوب غريب يبدو في فهم مثل هذا القانون الغريب ، والذى ينطوى على أبسط الكلمات المحددة التي تقول « عن طريق الموت » فماذا يقصد بها ؟ هل يقصد بها حياة الخلود في الشقاء ؟ إن هذا ما يدفع بالبعض إلى الإيمان بضرورة وجود الخطيئة التي أغضبت الرب عندما سلك البشر ضد قوانينه ومن ثم فقد فرض الموت على البعض دون الآخر ، يقول الرب : « إن من يأكل من هذه الثمار المحرمة فسوف يحكم عليه بالموت ، إن هذا يعني أن من يأكل وذريته مما حرمته ، فسوف أصب عليه غضبي وسخطي ـ هكذا يقول الرب ـ إن كلمة الموت بهذا المعنى وكما نفهم إنما تعني فقدان كافة أعمال الحياة وإدراكها ، وقد فرض هذا الضرب من الموت على آدم وذريته لعدم طاعتها نواميس الرب داخل الجنة ، ولهذا جاء يسوع المسيح باعتباره الفداء لخطايانا ، لأنه عندما فرض الموت على آدم لم يكن يعني به فساد طبيعة الإنسان ، أو ذريته لعدم طاعته نواميس الرب داخل الجنة لأن المسيح قد جاء باعتباره فداءا لخطايانا وأن هذا التفسير غريب ، ولهذا فانه ينبغي على كتب العهد الجديد مراعاة هذه الملاحظة التي يفرض فيها الفساد على الجميع نتيجه خطيئته (إثم) آدم .

لكن الأمر غير ذلك ، فان من يرتكب معصية أو خطيئة إنما يحاسب عليها بنفسه وليس الآخرين ، فهل من الممكن أن تعاقب جميع ذرية آدم بسبب الخطيئة ؟ وهل سوف يعاقب البرىء من أجل المذنب ؟ إن هذا يعني أن العقاب قد قدر على ذريه آدم ، وأنهم لن يكونوا خالدين ، فان حياة الخلود المؤقتة لهي هبة من هبات الرب لعباده الذين لا يستطيعون المطالبة بها

باعتبارها حقا لهم ، ومن جهة أخرى فان الرب ان يخسر شيئاً إذا استعاد هبته التي وهبها لهم . ولكن هل يعقل أن يأخذ الرب ما يعتبره حقاً للناس ، وهل يمكن له أن يشقي أحداً منهم بدون أن يكون مستحقاً لهذا الشقاء .

إن هذه هي رحمته التي عرف بها ، ويتصف بها كذلك . إننا هنا لا نريد الخلط بين الصواب والشر ، أي بين الرب والشيطان ، وأنني أقول ، ان الحياة المؤقتة التعسة التي يعيشها الانسان بعملها الشاق وبؤسها البين لهي علامة دالة ، وذات قيمة على وجـــودنا ولهذا يقال : « يموت الجميع في آدم أي من أجل خطيئته » .

إنني أعتقد أن البشر لا يعاقبون إلا بقدر أعمالهم وأفعالهم ، وأن الله سوف يجازي كل أمرىء على قدر عمله ، كما يحاسب كل روح بحسب عملها .

ولهذا فيجب علينا جميعاً أن نقف أمام عرش حكم المسيح ، وليحاسب كل منا على أفعاله بجسده سواءا كانت خيرة أو شريرة . لأنه من الضروري أن نقف أمام كرسي المسيح لكي ينال كل واحد منا ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً ، وأن يسوع المسيح نفسه يعلم تماماً من هم الذين سيعاقبهم ، كما شرح ذلك في موضعين مختلفين وبين ذلك بقوله : « إن الحكم يصدر على الأعمال المتعلقة باهمال تحقيق ماجاء بناموس الرب ، وخاصة أعمال الخير يقول السيد يسوع المسيح فحينئذ أصرخ لهم أني لم أعرفكم قط اذهبوا عني يافاعلي الاثم » « إنجيل متى ، الاصحاح السابع ، الآية ٢٣ » ، ثم يقول في إنجيل يوحنا الاصحاح الخامس الآية ٢٩ « فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة » . ويقول يسوع مخلصنا إلى اليهود :—

« سوف يخرج الجميع من القبور سواءا من فعلوا الخير أوالشر يوم القيامة ، فمن كانت أعماله الخير قام قيام الحياة ، ومن كانت أعماله شريرة قام قيامة العذاب ، وهنا فلا توجد خطيئه تسمى خطيئة آدم لكى يحاسب الانسان عليها ، إن الآية تقول : ـ « إن ابن الانسان سوف يأتى فى مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازى كل واحد حسب عمله « انجيل متى ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٢٧ » .

وهكذا فقد كان خروج آدم من الجنة من أسباب توالد ذريته خارجها ، وكذلك كتابة الموت عليها إلى الأبد ، بيد أن السيد المسيح قد استطاع من خلال هذا الموت أن يستعيد الحياة للبشرية مرة أخرى ، لأنه كما تقول الآية : ـ « لأنه كما فى آدم يموت الجميع ، هكذا فى المسيح يحيا الجميع » « رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ، الاصحاح الخامس عشر الآية ٢٢ » .. ويضيف يسوع مخلصنا قائلا : « فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى ، والأبرار إلى حياة أبدية » « إنجيل متى ، الاصحاح ٢٥ ، الآية ٤٦ ، كما قال أيضا :ـ و« إذا ناموسى قام يجربه قائلا يا معلم ، وإذا أعمل لأرث الحياه الأبدية » « إنجيل لوقا ، الاصحاح . ، الآية ٢٥ ، وهذا يشير إلى مايتطلبه ناموس الرب ، وكيف أحيا من خلال ممارسته .

من هنـــا يمكن ملاحظة معنى الهدف الذى تنطوى عليه العدالة الإلهية فانه لا يوجد فى ناموس الرب شخص مـذنب حتى يحـرم من الجنـــة ، فلا وجـــود للمـذنب فى ناموس الرب لأن كل انسان سوف يدفع ثمن الخطيئة ، مثال آدم الذى وقعت عليه عقوبة الموت ، وحرم من الخلود فى الجنة .

يقول يعقوب الرسول فى الإصحاح الأول الآية ١٥ : « عندما تحدث الخطيئة فمن الضرورى أن يقع الموت » ويقول بولس الرسول إلى أهل روميه فى الاصحاح رقم ٥ الآية ١٢ « من أجل ذلك كأنما بانسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم . وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس أن أخطأ الجميع ، وفى موضع آخر . لأن أجرة الخطيئة هى موت ، وأما هبة الله فهى حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا « الاصحاح رقم ٦ ، الآية ٢٣ » إننى أرى أن القوانين والمبادىء الثابتة التى تبين الحياة من الموت كما تبين لنا مبلغ نصيب أتباع الحق من الخلود والبركة هـؤلاء الذين يعملون الخير ، ويحيون وفق ناموس الرب ، إنهم الذين يبعدون دائما عن الموت فى حين يقترب منه المخطئون الذين يحاسبون على آثامهم لفشلهم فى الخضوع الكامل لناموس الرب تقول الآية : « إذا الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله » « رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ، الإصحاح الثالث ، الآيه رقم ٢٣ » إن هذا القول ينطبق على جميع اليهود وغيرهم من سائر الأمم « الإصحاح ٥ الآية ٢٢ » ويقصد هنا بمجد الله مملكة الرب التى فى السماء .

وقد نتساءل فى هذا الموضع عن علة اعطاء الرب مثل هذا الناموس للبشر حتى عصر تلاميذ المسيح ؟

انى اعتقد أن هذا الناموس إنما يمثل طبيعة الرب النقية الطاهرة التى يجب على الانسان العاقل اتباعها ، والحياة فيها لأنها تمثل النور الذى يحدد طريق العودة إليه ، والأسلوب الذى يلائم طبيعة الانسان , لهذا فانه يطلق على هذا القانون الالهى « ناموس العقل » أو « الناموس الطبيعى والعقلانى » وتأتى معصية الرب وعدم إطاعته من عجز الانسان عن السير وفق هذا الناموس الربانى .

وتجدر الاشارة إلى أن تمرد الانسان على قوانين الرب إنما تمثل ضربا من التمرد المباشر على غرار ما يحدث فى نظام الحكومات على الأرض فانه لا توجد فى العالم حكومة لا تتبع نظاما خاصا ، يرتكز فى نهاية الأمر على مجموعة من الحدود المعينة التي تساعد الانسان ، وتحدد سلوكه وأفعاله ، تقول الآية المقدسة : « إذا أجد الناموس لى حينما أريد أن أفعل الحسنى إن الشر حاضر عندى » . »

* * *

تعليـــق :

يذهب لوك في هذا الموضع إلى الاعتقاد بأن عقيدته المسيحية تزداد وضوحاً وجلاءا عند دراسة العهد الجديد الذى يبرز فيه مذهب الفداء ، ذلك المذهب الذى يقوم عليه الانجيل ، والذى يفترض سقوط آدم إلى أن جاء السيد المسيح (عليه السلام) واستطاع أن يفتدى الانسان ثم يسهب لوك بعد ذلك فى عـــرض بعــض الآراء التى تناوات مسألة الخطيئة والفـداء .

وعلى هذا النحو فانه يحاول فى هذا الكتاب الخاص بالصلة بين الفلسفة والدين أن يتعرض لخطيئة آدم ، ويحاول تفسيرها وتحليلها من واقع نصوص الكتاب المقدس ، وكذلك من النظر إلى أسفار العهدين القديم والجديد ، مبينا كيف تحملت ذرية آدم خطيئته من بعده .

ويرفض لوك المعنى القائل بفساد الطبيعة الانسانية أو الذرية كلها نتيجة لخطيئة آدم ، بل يعده تفسيراً فى غاية الغرابة ، كما يذهب فى هذا الصدد إلى أن الخطيئة ليست عامة، حقيقة أن المسيح يتنزل بسبب الخطيئة الأصلية ولكن ليس من المعقول أن يجرم كل الأفراد بسبب هذه الخطيئة الأصلية بدون أن توزن أعمالهم فى الدنيا .

وهكذا فكأنه فى الوقت الذى لا يجرؤ على إلغاء أو إبطال فكرة تنزل المسيح للخلاص من الخطيئة الأصلية نجده يحاول تحديد بعثة المسيح أو تنزله فى أضيق الحدود ، فيبيح أن تتنزل رحمة الله على الخطائين طالما قد

سلكوا سلوكا طيبا فى حياتهم بل يرى أن رحمـة الله تنسحب على المسيحيين متى تكرر خطأهم فى الدنيا ما داموا يطلبون الرحمة والعفو والغفران من الله . وهي وجهة نظر بروتستانتية قريبة من الاسلام حيث تذهب الآية فى القرآن الكريم إلى دعوة عباد الله الذين يأسوا من رحمته بألا ييأسوا من رحمتـــه . تقول الآية الكريمة : ـ « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا »[1] .

---

١) قرآن كريم : سورة الزمر آية ٥٣ ص ٣٩٠ . قرآن كريم ـ دار التراث العربى للطباعة والنشر .

٢ — موقف لوك من المعجزات :

« إن الكثـــير من المعجزات التي تحققت على يديه ، وبقدرته إنما تلعب دوراً هاما فى حيـاة البشر الذين استفادوا منهـــا وحلت عليهم بركته ، فالمعجزات التى قام بها المسيح تعد من قبيل الحكمة التى لا يستطيع أن ينكرها لا أعداء المسيحية ، ولا أتباعهـا ومن جهة أخرى فإن هذه المعجزات إنمـا تدل على وجود الرب الذى يباركها ويحققها بفضل قدرته ، ذلك الرب الذى أشعر به وأجده حولى فى يسر وسهولة .

إن المؤمنين هم الذين يشعرون بهذا الإحساس العميق بالوجود الالهى المبارك الذى لا يشعر به غيرهم ، لأنهم عرفوا طريق العودة إلى المسيح ذلك الطريق الذى يتجـلى بالمؤمنين ولا يعرفـه الضالين الذين غشيت عقولهم وأستسلموا لمـا يقوله الكهنة من أفكار زائفة تحولت معها طقوس العبادة إلى شيء آخر بعيد عن روح المسيحية . لقد ساعدت الطقوس والشعائر التى مارسها الجهلاء والضعفاء عـلى ظهور الرذيلة ، والاعتقاد في الخرافات التى ما لبثت ان أنتشرت فى العالم بتشجيع من هؤلاء الكهنة الذين صموا آذانهم عن صوت العقل والمنطق ، وصبوا إهتمامهم على الأشياء التى لا صلة لها بالدين لكنها تتعلق ببعض الطقوس التى ابتدعوها والتي بسببها تخبـــط العالم فى ظلمات الجهل بعيداً عن الرب الواحد الحقيقى » .

* * *

تعليق : —

يستمر موقف لوك الذى يدافع فيه عن المسيحية منذ بداية الكتاب ، فيشيد فى هذا الموضع بمعجزات السيد المسيح التى أزهلت الناس وانتشلتهم من ظلمات الجهل (الضلال) إلى نور الحق والإيمان بالرب الواحد .

ولقد أبرز لنا لوك فى هذا الموضع دور الكهنة ورجال الدين فى تزييف حقائق الدين ، وتضليل الناس ، وحثهم على الاعتقاد فى الخرافات التى استشرت بسببهم فى العالم كله .

وعلى الرغم من الاختلاف الواضح بين موقف كل من لوك وسبينوزا حول مسألة الوجود الإلهى بيد أن ثمة تشابه يبدو واضحا بين موقف كل منهما حول مسأله مهاجمة الطقوس الزائفة للدين التى شوهت جوهره الحقيقى ، وانكار شعائر الكهنة الذين زينوا الباطل ، وحولوا حقيقة الدين إلى مراسيم رخيصة للعبادة فى محاولة منهم لاخضاع العامة من الجهلاء والأغبياء من المسيحيين ، وكذلك مناداتها بمراعاة استخدام العقل والمنطق فى المسائل المتعلقة بالدين .

٣ ـ القانون الإلهي هو ناموس العقل أو النامـوس الطبيعي :ـ

« لقد كان الكهنة هم الطبقة المسيطرة على عقول ونفوس البشر في ذلك العهد، إذ اعتبروا أنفسهم الوسيله الوحيدة التي تقرب الإنسان من ربه، وهكذا صور للعامة والجهلاء أنهم عاجزون عن رؤية الإله الخالق في حين أنه كان من المتيسر ادراكه ومعرفته بالعقل في يسر وبدون أن يروه .

إن هذه النـاحية بالذات — رؤية الإله بالعقل إى إدراكه ـ هي مالم يحاول الكهنة أن يفصحوا عنها للناس ، لقد كان هدفهم الرئيسي هو تحقيق مكاسبهم التي دأبوا على أن تكون في منأى عن العقيدة الصحيحة ، وقانون الايمان المسيحي . ورغم ذلك فقد واصل العقل مسيرته مبيناً للبشر كل أمرا من أمورهم ، ومتحدثا بوضوح تام عن الحكمة الإلهية والسلطة القادرة على الكشف عن إله واحد ينبغي على البشر جميعا عبادته . وهنا يكمن القانون الإلهي ، أو القانون الطبيعي الذى أتت به للمسيحية » .

* * *

تعليـق :

ينقد لوك في هذا الموضع موقف أصحاب الكهنوت الذين ضللو الجهلاء . وأخفو عنهم حقائق الدين التي تدعو إلى الإله الواحد ، والأخلاق المسيحية التي تكمن في القانون الإلهي أو القانون الطبيعي .

ولقد اتفق لوك مع الغالبية العظمى من مفكرى عصره مثل روسووغيره في الفكرة التي تذهـب إلى أن الانسان يولد نقيا ، أو يولد وكأن لديه أخلاقاً طاهرة ، وأن هذه الأخلاق هي التي توحي بها المسيحية . فكأن أخلاق الإنسان الفطرية أو الطبيعية تنسجم أو تتفق مع أخلاق الناموس الإلهي وينتج عن هذا أن المسيحية هي الدين الطبيعي . على ما يذهب لوك .

ونحن نعلم أن القرن الثامن عشر قد شهد نوعين من الدين : هما الدين الطبيعى (المؤلهة) ، ومذهب المفكرين الأحرار . يمثل أتباع الدين الطبيعي مجموعة الفلاسفة الذين أنكروا وجود إله منزل من السماء ، بيد أنهم يقرون وجوده عن طريق العقل ، ويذهبون إلى أن الحتمية الطبيعية تدلل على وجود إله فى الطبيعة ، ومن ثم فلسنا فى حاجة روحية إلى وحى ، أو كتب مقدسة ، أو كهنوت . وهكذا فقد سمى هذا الدين "طبيعى إلى الكشف عن وجود الاله بدون العودة إلى الوحى . أما طائفة المفكرين الأحرار فقد أشاروا إلى وجود العلل الطبيعية منكرين فى ذلك وجود إله للطبيعة .

٤ - موقف لوك من الدين :

وكانت عبادة الإله الواحد هى الدين السرى الخاص ببنى إسرائيل وحدهم. وإذا نظرنا إلى سفر الرؤيا وجدنا أن بنى إسرائيل كانوا فى جو شين فى حين كان العالم يتخبط فى الظلام عاجزا عن معرفة الإله الواحد ، ولم يكن هناك فى ذلك الوقت ثمة شعوب أخرى تعرف معنى نور العقل أللهم إلا بعض الإغريق الذى كان الفليسوف سقراط واحدا من بينهم ذلك الرجل الذى كان يضحك ويسخر ويعارض مثل هذه الشعوب لشركهم بالله ، ولما يعتنقونه من آراء خاطئة عن معنى الألوهيه ، وهذا ما يجعلنا ندرك كيف كانت مكافأتهم له .

أما أفلاطون وغيره من فلاسفة الأغريق فقد كان إيمانهم بالله ضعيفا رغم تميزهم بسرعة البديهة تقول الآية : - « فوقف بولس فى وسط زيوس باغوس وقال أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيراً لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحاً مكتوباً عليه لإله مجهول فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادى لكم به الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه ، هذا هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل (معابد) مصنوعة بالأيادى ، ولايخدم بأيادى الناس كأنه محتاج إلى شىء إذ هو يعطى الجميع حياة ونفساً وكل شىء ، وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الإرض ، وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم لكى يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً » « أعمال الرسل ، الإصحاح ٧ ، آيه ٢٢ » وفى الآية رقم ٢٩ من نفس الإصحاح « فاذا نحن ذرية الله لاينبغى أن يظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضه أو حجر نقش صناعة واختراع انسان » .

هكذا يشير بولس الرسول إلى الأثينيين الذين استسلموا للخرافات على الرغم من وجود النور الذي كان سيساعدهم في الكشف عن وجود الله الحق ، ورغم ذلك فلم يهتد منهم سوى القليل ، فعلى الرغم من قرب الله منهم وحضوره في كل مكان بيد أنهم ذهبوا يتخبطون في ظلمات الجهالة إلى أن جاء الرب مخلصنا وأرسل إلى هذا العالم ، ومعه سفر الرؤيا الذى بدد هذا الظلام وحمل من الرب الحقيقي المجهول ربا واضحا وجليا . لكي يعرفه العالم وعندئذ وضع حدا للشرك بالله وعبادة الأوثان .

إن ربنا يسوع المسيح وهو الذى حمل راية الحب والسلام ، وهو الذى بشر بالحق ، وبنور الانجيل ، وكذلك بعبادة الله الواحد الذى أصبح الجميع يؤمنون به . يقول النبي يوحنا عن مخلصنا يسوع في الاصحاح الثالث ، الآية الثامنة :ـ « الريح تهب حيث تشاء ، وتسمع صوتها ، لكنك لاتعلم من أين تأتى ولا إلى أين تذهب ، هكذا كل من ولد من الروح » .

لهذا السبب فقد أرسل ابن الله وتجسد على الأرض ، كي يضع حدا لأعمال الشر ، فأضاء العالم الذى كان في مسيس الحاجة إلى النور الذى أرسله الله حتى لايكون هناك سواه واحداً ، أزلياً غير مرئياً .

لقد أرسل السيد يسوع المسيح أو مخلصنا لكي يحطم حائط التفرقة الذى أقامه اليهود ، بيد أنهم لم يصغوا إليه لكن رسالة السيد المسيح ظلت مستمرة ولم تقتصر معجزاته ورسالته السماوية على أرض كنعان أو المتعبدين، وحجاج أورشليم فحسب ، لكنهـــا تعـدت ذلك وقام المسيح ذاته بالتبشير عن مملكة الرب في سومارية (الضفة الشرقية لنهر الأردن حاليا) وقد ظهرت معجزاته في حدود المنطقة الواقعة بين مدينتي طور وسيدون وأمام

حشود كبيرة تجمعت من كل مكان وبعد القيامة مباشرة أرسل تلاميذه فانتشروا بين الأمم وهم يقصون معجزاته التي كانت تحدث في وضح النهار إلى حد كبير لم يستطع معه أعداء المسيحية إنكارها » .

* * *

تعليق :

إستمر لوك في عرض أفكاره فى الدين وهو يركز على موضوع الصلة بينه وبين الفلسفة ، فقام بعرض تاريخى لفكرة الإله في الدين ، مبيناً دور العقيدة المسيحية ودعوة السيد المسيح ،ودور معجزاته في التبشير بوجود الإله الواحد .

٥ ــ لوك بين الفلسفة والدين ــ

« إن موقف رجال الدين والكهنة من العامة والجهلاء قد حدا بالكثيرين إلى إعتناق مذاهب الفلسفة ، لقد كان التفكر الفلسفي هو الطريق الموصل للفضيلة ، وهو الذى يسهم فى ترابط المجتمعات ، وفى وضع قوانين الحكومات والقوانين المدنيه Civil Laws التى تحمى الفرد وتفرض القانون الذى يحقق السعادة بين الناس

وهكذا فقد تمكن الفلاسفة قبل ظهور السيد المسيح من وضع بعض الأنظمة والقوانين ، ومحاولة البحث عن الحقيقة لكى يجعلوا من الأخلاق شيئا ملموساً وعملياً ، خاصة هؤلاء الفلاسفة المسيحيين الذين وضعوا أيديهم على هذه الحقيقة منذ البداية ، كما كانوا يسمعونه فى ذلك العهد عن تجلى المسيح ، والرؤيا أو التنبؤات التى قبلها العقل ، ولم يتناقض معها مطلقا . بل صدقها من الوهلة الأولى وذلك لقيامها على الواقع ، واستنادها إلى العقل ، وبعدها عن الخيال .

وهكذا تبدو معقولية المسيحية ، وهذا بالفعل ما يؤكده الجانب الأخلاقى المستمد ـــ النور الطبيعى (الفطرى) الموجود داخل كل منا ، والذى يدفع للتقدم وعلى هذا النحو يصبح البحث فى الأخلاق والفضيلة ، وما ينطويان عليه من مفاهيم العاطفة والرذيلة ، والخطأ من الأمور التى لا تقبل المناقشة لأنها استنباط واضح ، استطاع أن يخلق ، وهذا ما يظهر فى حالة الجمع بين قواعد الأخلاق الخاصة بالفلاسفة ، ومقارنتها بالقواعد الموجودة فى الكتاب المقدس ، وكتاب العهد الجديد . وسوف تكشف لنا هذه المقارنه

بعد ذلك عن أن هذه القواعد أقل بكثير مما جاء به مخلصنا يسوع ، وما علمه لتلاميذه .

وفى ضوء ما سبق يمكننى القول بأن الأقوال والحكم التى ذكرها عابدى الأوثان قبل عصر مخلصنا لا تمثل سوى مجموعة من هذه القواعد الخاصه بالأخلاق التى يمكنهم تلمسها بسهولة إذا ما قرأوا كتاب العهد الجديد مما يؤكد من جديد مبلغ الحاجة إلى مخلصنا يسوع ، وإلى قوانين الأخلاق التي أوحى بها الرب ، مما يدل على علم البعض بمبادىء الأخلاق حتى قبل ظهورها فى الإنجيل ، وإنتشارها بين جميع البشر » .

* * *

تعليـق :

من خلال عرض ترجمة الجزء السابق للوك يتضح لنا إيمانه بأهمية الفكر الفلسفى فى تحقيق الفضيلة ، وفى إقامة الوحدة والترابط بين المجتمعات ، وكذلك فى وضع قوانين الحكومات ، والقوانين المدنية التي تحمى الفرد ، وتفرض القانون الذى يحقق الرخاء والسعادة بين الناس .

وفضلا عن أهمية الفلسفة يبرز لوك أهمية الدين الطبيعى ، ومبلغ إهتمامه بمثل هذه الأسباب الطبيعية كما يبين مراحل تطوره وكيف تعسر فى دوره منذ البداية ، بيد أنه إستطاع بعد ذلك أن يضع أسس الأخلاق التي توضح هذا النور الإلهى بعيدا عن السوقية الذين عجزوا عن تلمس هذا النور على وجه الأرض بواسطة قدرة الله وسلطانه الذى يشعر به الجميع .

وعلى هذا النحو يصبح القانون الطبيعى هو الملك أو المشرع الأساسى

للقانون الذى يشير إليهم بواجباتهم ويدفعهم إلى التزام الطاعة التى يقبلها الله . ثم ذهب لوك بعد ذلك يبرهن على معقولية المسيحية من خلال برهنته على واقعية النبؤات واستنادها إلى العقل .

٦ — الدين منبع الأخلاق :—

« ولنفترض أن مبادىء الأخلاق قد جمعت بعضها إلى البعض ، فظهر بعضها فى سولون Solon , وبياس Bias فى اليونان ، كما ظهر البعض الآخر فى تولى Tully فى ايطاليا ، ولكى نستكمل هذا العمل نشير إلى ظهور البعض منها فى مسافة أبعد مثل الصين عند كونفوشيوس Confucius، والبعض الآخر لآنا كارسيس Anacarsis وبعد ذلك نتساءل ؟ ماالذى كان يستطيع أن يفعله هؤلاء لكى يقدموا إلى العالم مثل هذه المبادىء الخاصة بالأخلاق ؟ وهل كان فى إمكان الإنسان أن يتعلم من قانون الحياة لكى يضيف شيئا إلى الأخلاق ؟

هل يعنى ظهور الأخلاق قبل المسيحية ؟ أن أرستبوس Aristippus أو كونفوشيوس قد ملكا زمام السلطة والمقدرة ؟ وهل نستطيع الجزم بأن زينون Zeno كان مشرعا لقانون البشر ، الحق أن ماذكره هؤلاء الفلاسفة لايعد أن يكون مجرد حكم أو أقوال خاصة بهم لا إلزام على الإنسان كي يؤمن بها

وعلى هذا النحو فقد مثلت قواعد الأخلاق القائمة على العقل التى نادى بها الفلاسفة قانونا للطبيعة خاصة بعد ظهور مخلصنا الذى يمثل الداعية لقانون العقل ، والإقتناع .

ولعل هؤلاء الفلاسفة ـ الذين تحدثوا عن الأخلاق ـ قد توصلوا إلى الفضيلة بنور العقل (التأمل) ، وحب الحقيقة بدون أن يعرفوا المبادىء الحقيقية لقانون الطبيعة وأسس مبادىء الأخلاق . ورغم ذلك فهناك ثمة تماسك ووحده تجمع بين الفلاسفة والحكماء وهو ما يعد من روائع الأمور في حد ذاته .

لكن يجب ملاحظه أن هناك الكثير من الأمور التي تحتاج لكي تظل راسخة في أذهان البشر إلى سلطان قوى وقدرة تساعد على بقائها ، وتجعل العقل يؤمن بقوة بها ألا وهى المسائل التي تستند إلى التجلى كما جاء بسفر الرؤيا .

والحق أنه لايوجد كاتب أخلاق واحد ، أو ناقل عن الآخرين يستطيع أن يسن مثل هذه القوانين للبشر حتى أن الدكتاتور ذاته لا يستطيع أن يضع القوانين أو يعمل بها لمجرد أنها من خلاصة فكره ، لأنه ليس في استطاعة الانسان أن يسن القوانين التي يؤمن بها الآخرين ما لم يوحى إليه الرب بوصاياه إلى هذا العالم .

وهذا بالفعل مالم ألحظه في المرحلة التي سبقت ظهور مخلصنا يسوع الذى علمنا مبادىء الاخلاق باعتبارها قانونا واضحاً .

ولكن من هو ذا الذى وضع التزامات هذا القانون ؟ ومن ذا الذى شرع أجزاءه ووضعها معاً ، وأظهرها في العالم باعتبارها إلتزاماً ؟ وهل كان هناك مثل هذا القانون قبيل ظهور مخلصنا يسوع ؟

فلو فرضنا أنه لم يكن هناك مشرعا ؟ في الوقت الذى كان ينبغى فيه

وجود قانون يضع لنا قواعد الأخلاق التي توجه من يريدون سلوك سبيل الصواب فما لاشك فيه أن هؤلاء الذين سبقوا السيد المسيح كانوا سوف يتمكنون من سن القوانين ، بما يتمتعون به من عقل واعى وفكر ناضج ، ولهذا فلن يخطأوا في وجباتهم بل سوف يصيبون فى أهدافهم وسلوكهم :

لقد إستطاع المسيح أن يقدم لنا هذا القانون الاخلاقي من خلال العهد الجديد ، وظهور المسيحية ، وعن طريق تجلى السيد المسيح نفسه الذى وضع لنا القواعد الكافية .

ولقد جعل دليل المسيح الذى تجلى فى معجزاته فضلا عن قدره الله جعل الحقيقة والإلتزام ميزة من مميزات القوة السماوية ، وقانوناً حقيقياً قضى على شك الماضى .

والآن دعنى أسأل أى من هؤلاء الفلاسفة أو المفكرين عن مبلغ اكتمال ووضوح مذهب الأخلاق قبل مولد مخلصنا ؟

وهل هو الذى وجه كل من بروتوس Bru'us وكاسيوس Casus وهما رجلان أحدهما مؤمن والآخر ملحد لكى يقبلوا قواعد الأخلاق ، ويلتزموا فى كل الامور المتعلقة بواجباتهم .

وهل استطاع كل منهما أن يجد هذا القانون الذى وضعه ، وهل استطاع أن يعيش به ؟ بأن هذا القانون كفيل بالإقرار بأن هـــذا مذنب ، وذاك برىء .

أما فى حالة الدين السماوى الذى يرسل إلى هذا العالم وهو يفيض بالنور السماوى ، فانه يكون موضع قبول عقلى . بيد أن البشر قد أخفقوا فى وضع

هذا القانون كاملا ، ويظهر ذلك من وجود بعض المشكلات التى وضعها بعض الفلاسفة بدون حلول فألقوا بها الشك والريبة فى النفوس .

إن أى إنسان يفكر فى قبول عذر الطبيعة البشرية بالقاء اللوم على اهمال الإنسان نفسه لايضع بذلك القواعد الأخلاقية فى منزلة عالية ، ولايساعد فى حل المسألة . ولقد وجد مخلصنا أن البشر يخضعون لأساليب فاسدة تفشت مبادئها عاما بعد عام . بحيث استعصت فيما بعد على التغير ، وتبع ذلك أن جاءت قواعد الأخلاق متباينة من بلد إلى آخر ، ومن طائفة إلى أخرى . بيد أن هذه الإختلافات لم تقضى على مثل هذه الأخطاء التى غمرت أعماق البشر ومن ثم كان من الضرورى وضع المعايير التى تحدد الصواب من الخطأ .

وهكذا فقد لعبت القواعد الأساسية للحياة الأخلاقية التي أوصى بها الدين دورا هاما في الحياة لم تقم به القوانين المدنية ، أو توصيات الفلاسفة .

ولكن هل كان هناك ما يسمى بالالتزام الذى يسمح للناس باستيعاب مبادىء القانون ، ذلك القانون السماوى أو قانون « الطبيعة » الذى لن تتم معرفته بالطبع بدون المعرفه الواضحة والإعتراف بشرع القانون ، ألا وهو الله الذى يحدد مكافأة وعقاب من لايدخل فى طاعته .

إن تاريخ الوثنيين يخبرنا بأنهم لم يراعوا قواعد أخلاق هؤلاء العبدة ، فضلا عن وجود الكهنة الذين ادعوا أن الآلهة أوحت لهم من السماء ، كما تحدثوا إليها ، لقد كان هؤلاء على قدر قليل من الفضيلة ، وكذلك الفلاسفة الذين استخدموا المنطق واستندوا إليه ، ولم يشيروا إلى الألوهية في قواعدهم الخاصة بالأخلاق ، كما لم يذكروا من الحقائق غير هاتف الغيب .

وعلى هذا النحو يعجز الانسان عن رؤية الحقيقة كاملة ، فلا يرى إلا أجزاء منها ، ويصبح حينئذ فى حاجة ماسة إلى نور من السماء لكى يكشف له عنها » .

تعليـق :

يرى لوك فى هذا الموضع المتعلق بموقف الدين من الأخلاق أن الدين هو منبع الأخلاق ، وأن الحياة الاخلاقية للبشر الذين عاشوا فى العهود القديمة - الأديان الوثنية - قد كشفت عن بعض المبادىء الأخلاقية التى تمكن هؤلاء من الوصول إليها بنور العقل ، وبالفطرة وأن الدين فى النهاية إنما يتفق مع هذه الأخلاق الطبيعية التى تصدر عن العقل .

ولقد جاءت الأخلاق التى نادى بها الدين متوافقة مع الفطرة السليمة للانسان حتى قبل ظهور الدين المسيحى بيد أن تعدد مدارس الفلسفة ، واختلاف وجهات نظر المفكرين حول قواعد الالتزام الخلقى ، جعلت الانسان لايدرك سوى أجزاء من الحقيقة التى اجتهد الدين بعد ذلك فى الكشف عنها ، وتوضيحها وتقريبها من عقول ونفوس البشر الذين أصبحوا فى مسيس الحاجة إلى نور من السماء يكشف لهم عنها .

٧ ـ المعرفة والنور الفطرى :

إن البشر فى حاجة ماسة إلى القدرة التى تقرر A t st الأمور بدلا من الركون إلى البراهين التى يعتمدون عليها لاثبات شيئا ما ، ولا يمكن بعد ذلك أن نطالبها بشىء أكثر ، لأنه ينبغى تقرير كل الأمور ، وعلى هذا النحو نجد المعلمين يعتمدون على البراهين اليقينية ، التى تترابط بخيط متماسك من المبادىء أو المبدأ الأول ، الخاص بالقواعد المرتبطة بالأخلاق ، وهذا ما يجب أن يتبعه الجميع سواء من يعملون بالمعامل ، أو رجال التجارة أو الرياضيات إن الغالبية العظمى من البشر لا يعرفون هـذه الحقيقة إلا أنه يجب عليهم الايمان ولكننى أتساءل

هل الذى يرسل من السماء بقوة الله هو الذى ينبغى عليه أن يقدم الدليل ويقرر الأمور (أداء المعجزات المتعددة والمختلفة) لكى يقدم للناس القواعد المباشرة للأخلاق والطاعة ، ويوجههم إلى أداء واجباتهم بالحـق ، تلك الواجبات التى يحولها من مجرد أفكار عامة إلى مبادىء تخضع لعقل الانسان الذى يجب أن يطاع فحسب ، والذى يقرر الأمور بوضوح ، كذلك جميع الواجبات الخاصة بحياة الإنسان .

وأننى أرى إنه إذا فكر الإنسان بروية وتأمل عقلهفى معالجة مشاكله ، فسوف يطمئن إلى أن منهج تعليم الناس حقيقة واجباتهم إنما يأخذ المسار السليم الذى تؤمن به القلة التى تتفهمه والتى تستخدم العقل فى إستنباط الأمور الصالحة . إن هذه الأمور قد أخذت صورة المبادىء التى قال بها الانجيل ، والتىأتت عن طريق المعجزات التى يشهد بها شفاء المرضى ، واستعادة البصر . إن كلمة تقال تكفى لكى تضع الروح فى الموتى من جديد ، وهذه المسائل

إنما تتم بمساعدة القوة الإلهية ، فمن ذا الذى يقدر على التمييز بين المريض وغيره ، بين الأعرج والسليم ، بين الميت والحى . إنه الانسان الوحيد الذى يعرف المذهب الذى يثبت أن يسوع المسيح قد أرسل من قبل الرب ليكون ملكا ومخلصا لهؤلاء الذين يؤمنون به .

لقد أصبحت وصايا يسوع المسيح بمثابة مجموعة المبادىء التي لاتحتاج لبرهان يؤكد حقيقتهـا أو حقيقة ما جاء في الكتب المقدسة المستوحاة من الرب . تلك الكتب التي تضم الوصايا والواجبات الخاصة بمبادىء الأخلاق الواضحة الميسرة الفهم .

لقد كانت شهادة المعجزات Attestation of Miracles التى أقتنع بها الكثيرون ممن آمنو بالعقيدة من المميزات التي كان يتمتع بها مخلصنا يسوع وتلامذته الذين كانوا يؤمنون بكل ما هو طاهر ومقدس تماما . ويعملون على نشر الأخلاق التى تشعر من يمارسها بالسعادة اللامتناهية .

وفضلا عن شهادة المعجزات كانت هناك ميزة أخرى للسيد المسيح ، وهى ميزة القدرة على مواصلة الحياة أو دفعها بالنسبة المؤمنين بالواجب وتذليل الصعوبات والعقبات التى تعترىهم فقد كانوا يقاسون المتاعب لحسن ضمائرهم ، وصفاء قلوبهم .

ويجب أن نعلم أن الفضيلة والرفاهية لا يجتمعان معاً فى هذا العالم فقد كان للفضيلة أتباعها كما كان البعض الآخر يسعون إلى تحقيق أهدافهم عن طريق بعض المبادىء الخاصة بالأخلاق حتى يحققوا سعادتهم , لقد كان هذا هـــو أسلوب الأميين الذين كانوا يفكـرون فى الحيـاة الأخـرى

المتعلقة بمملكة الرب وقد عرفهم شعرائهم ببعض الأسماء مثل ستيكس Styx وأشيرون Acheron واليسيان Elysian . إن فكرهم لم يتعدى الأشعار – التى كانت ترتبط فى أدهانهم بالأساطير التى آمنو بها . وكان بعضهم يتابع الفلاسفة ، ويؤمنون بالقواعد والمبادىء الخاصة بأفكارهم التى تبشر بالحياه الأخرى فقد كانوا ، كما سبق أن ذكرت – يستندون فى حججهم إلى الفضيلة التي تقوم عليها كمال الطبيعة البشرية . لقد كان هناك كذلك – قبل عصر مخلصنا طبقة الكهنة لذين تحدثوا عن الأشباح والأرواح لدفع الناس إلى الايمان بالخرافات ، ومدوامة ممارسة عبادة الأوثان » .

تعليق :

يرى لوك فى هذا الموضع أن الطبيعة البشرية وأخلاق الفطرة التى مارسها الناس قبل عصر المسيح كانت هي ذاتها نفس الأخلاق التى بشر بها الانجيل ، وأنار بها السيد المسيح عقول المؤمنين بالدين فأصبحت وصاياه تمثل مجموعة المبادىء الخلقية . فضلا عن معجزاته التى أذهلت الجميع ، ويبين لنا لوك فى هذا الموضع كذلك مميزات السيد المسيح من القدرة والقوة التى وهبها الله له ، والمساعدة على الحياة بما يمنحه من نور الإيمان وبيان معجزاته للمؤمنين به .

وإذا حللنا هذا الموقف عند لوك وجدناه يتقابل إلى حد كبير مع آراء مالبرانش فى الدين . فهو يقول فى أحد نصوصه التى تتفق مع موقف لوك :–
« لما كان الله هو الحاصل على القدرة التى تمنح المخلوقات الوجود . وعلى

النور الذى ينير عقولهم ، والقانون الذى يدبر إرادتهم بحيث لا يملك سواه هذه القدرات ... لهذا تصبح عدالة توزيع النور الإلهى بين العقول هى مصدر الذكاء ومنبع الفهم ، أساس القدرة على الاتحاد بالله الذى ينيرها وينقيها ، ويهبها القدره والتدبير » (١)

كما يتفق موقف لوك مع موقف بسكال كذلك فى صحة الدين وتوافقه التام مع الطبيعة الانسانية منذ بداية التاريخ ، وإن هذا التوافق يظهر على ثلاث مراحل : هى معرفة الدين الكاملة باحتياجات الإنسان ، ومحاوله سدها أو إشباعها ، كما يذهب بسكال إلى وجود ثلاث علامات للدين هى الاستمرار والديمومة والحياه الخيره . (٢)

وهكذا يبرز لنا موقف لوك المسيحى الذى يبرر الدين ويتفق فيه مع فلاسفة المدرسة الديكارتيه أمثال مالبرانش وبسكال .

---

1) Malebranche N : La Recherche de La vérité

2) Pascal. B: Pensée 357 P 428

٨ ـ الفضيلة بين الفلسفة ، والدين الخالد :

« لكن معجزه السيد المسيح قد أتت ، وأدهشت الكثيرين من الناس لأنها انبثقت وسط هذه الأطلال والتقاليد الماضية والبالية (العادات الوثنية) التي سيطرت على أعماق الناس بل خاطبت أعماق قلوبهم ، بيـد أنهم كانوا يعلمون تماما أن هناك شيء ما بداخل الإنسان سوف يساعدهم على الهرب من القبر إلى حياه كاملة خالده ، وهذا ما أعطى لمبادىء المسيحية جدتها وخلودها ، إذ جاء يسوع المسيح مبشراً بهذه الحياه الخالده ، وقام بعمل المعجزات المختلفة التي كان يعود فيها بالموتى إلى الحياه مره أخرى ، كما يبرهن على موته وقيامته ثم صعوده إلى السماء .

ولقد استطاعت حقيقة السيد المسيح (الواحده) أن تغير من طبيعة الأشياء في العالم ، وقدمت المعنى الحقيقي للتقوى على كل محاولات الأغواء ، أو ردع الإنسان . لقد استطاع الفلاسفة أن يبرزوا لنا جمال الفضيلة فأطلق أتباعها العنان لها غير أن البعض كان يرفضها . ولقد شعر من يتمسكون بها أن هناك مقاييس ومعايير تحكمها فضلا عما تتميز به من مجد خالد ، لهذا فقد أصبحت قاعدة يعمل بها الجميع لضمان السعاده الأبدية .

, لقد نجحت الفضيلة ـ في ضوء ما سبق ـ في تأكيد وجود حياة أخرى للناس ، الذين تمسكوا بمبادئها بعدما شعروا بنتائجها الخيرة التي برهنت على وجودهم ، ولم ينس أتباع الفضيلة أن ينظروا إلى المسائل الآخروية الخاصة بالسماء والجحيم حيث تبين لهم مقدار التمايز الكبير بين المتعة السريعة ، والآلام التي يتمكن المرء من تجنبها حين يخضع للفضيلة والعقل . وهكذا يصبح المذهب الخاص بالفضيلة الذى تابعه الفلاسفة بمثابة تحدى

لأى منافسة ، وهذا ما جعله يأخذ صورة العمل الطيب ولقد جاء الانجيل ويسوع المسيح ليقدما لنا هذه المبادىء »

تعليق :

يبين لنا لوك فى هذا الموضع جمال الفضيلة التي أتى بها الدين وتحدث عنها يسوع المسيح ، وهو يحاول هنا أن يربط الأخلاق والسلوكيات التى نادى بها الفلاسفة وبين الأخلاق الدينية التى بشر بها الدين. وعندئذ يصبح المذهب الأخلاقى عند الفلاسفة مذهبا رائعا وخالدا لأن الأنجيل ويسوع قد قدما لنا جميع مبادئه وهكذا تظل الفضيلة موضوعا مشتركاً بين الفلسفة والدين الخالد — على ما يذهب إلى ذلك لوك — .

٩ - الدين والحياة الخيرة :

« وفضلا عما سبق فانى أضيف ميزة أخرى للدين وهى المساعدة التى وعد بها السيد يسوع المسيح ،وتعنى أنه إذا استطعنا أن نفعل ما فى مقدورنا - فى سبيل الدين - فسوف يساعدنا روح القدس ويرشدنا فى كل سبيل ، وسوف تظل روح الرب باعتبارها المثل الأعلى الذى يجب أن يهتدى به ، ومن ثم يتمكن الرجل العاقل من هداية أبنه وتوجيهه إلى الطريق الذى يحقق له رغبته . . إذن فما قولك بروح القدس ، روح حكمة الرب هل تخفق فى تحقيق أى من رغباتنا ؟ .

وهكذا فانى أقول أن يسوع المسيح قد وعد بمساعدة المخلص والعادل ، وهذا وعد يقينى سواء فى العمل أو التنفيذ فالكثير منا قد يخطىء طريق الحق . وطريق الفضيلة بيد أن المسيح يحاول هدايته وعلى من يريد التعلم أن يوجه نظره إلى عصور العالم السالفة لكى يقتنع بأن سلوك طريق الخطيئة والرذيلة والاغراء لم يدفع إلى تعلم الفضيلة أو ممارسة الدين الحقيقى إلا بواسطة رجل قادر وذراع قوى ، رجل يقدم الوعد بالمساعدة والمؤازرة لكى ينتشل الناس من طريق الرذيلة والخطيئة »

تعليق :

يتضح من ترجمة هذا الموضع دعوة لوك الصريحة إلى الارتماء فى أحضان الدين ، والايمان بانه مبدأ الحياة الخيرة وأن من يخلص فى العبادة وطاعة الرب هو الذى ينال مرضاته وهدايته ، فيساعده روح القدس ، وتظل بركة الله معه . ويدلل لوك على دور العقيدة المسيحية الخير بالدعوة إلى النظر إلى ماضى تاريخ العالم ، والمقارنة بين سلوك الرذيلة الذى كان هو سلوك الإنسان ثم كيف تحول هذا السلوك إلى حب للفضيلة والخير بقدوم المسيحية التى كانت تدعو إلى قيم الحق والفضيلة والخير .

ولقد أتى المسيح الموهوب بالقدرة والبركة فاستبدل الظلمة بالنور ، والخطيئة بالفضيلة .

وعلى هذا النحو الذى يدعو فيه لوك إلى محبه الدين باعتباره مرفأ المؤمنين ، فانه يتفق مع بعض الفلاسفة المسيحيين الذين أولو الدين أهمية بالغة فى تحقيق حياة فاضلة وخيره للمؤمن — وأن إيمانهم بالسيد المسيح إنما هو وعد بالمساعدة ، والمعاونة فى الوصول إلى راحة الضمير ، وطاعة الله بالامتناع عن سلوك الرذيلة والشر ، وتأدية أعمال الخير والبر .

وإذا حللنا موقف لوك من الدين لوجدناه يكاد يقترب من موقف الفلاسفة المسحيين الذين أسسو مذاهبهم فى ضوء الكتاب المقدس المسيحى ، وليس مستغرباً أن نجد هذا الموقف الدينى يكمن بين ثنايا فلسفة الدين عنده ، لاسيما وقد كان فيلسوفا مسيحياً فى المقام الأول ، فضلا عن مساعده مذهبه التجريبى وركونه إلى عنصر الخبره فى فلسفته على

الخوض فى مجال الدين بالروح نفسها وبالمنهج نفسه الذى طبقه فى ميتا فيزيقاه منذ البداية ، فنجد أن إشارته إلى الدين تنطوى على تجربة له وخبرة به ، فهو دائما وفى أغلب مواضع كتابه يحاول أن يميز بين مرحلتين فى حياة الإنسان هما المرحلة السابقة على المسيحية واللاحقة عليها ، ويذكر أنهما مرحلتان متمايزتان تمام التمايز ، لأن أحدهما نشأت فى الظلام ، والأخرى فى النور الذى وهبه لها السيد المسيح . فالانسان فى المرحلة الأولى كان بعيداً عن الله وبالتالى بعيداً عن ممارسة الفضيلة والخير ولكن ممارسته للدين ودخوله فى تجربة فيه قد برهنت على أنه منبع الفضيلة والأخلاق التى يتفق مع فطرة الإنسان

وهنا يقترب لوك حثيثا من موقف بسكال الذى يرى أن طبيعة الدين تتوافق وحاجات الإنسان وفطرته ، وأن سعادته تكمن فى استمرار إيمانه بالله والعمل بارساداته ذلك الإله الذى يسعد المؤمن فى القرب منه ، ويشقى فى الانفصال عنه ، وأن الواجب يدفعنا إليه فى حين تبعدنا عنه غرائز النفس وشهواتها .

١٠ – الدليل على الدين :

« إن هناك كلمة لابد من تسجيلها لهؤلاء الذين سيعترضون هى : أنه إذا كان الدين الذى جاء به يسوع ابن الناصرة وهو المعروف بالمسيح قد أكد على أنه سوف يموت ويعود للحياة ، وقد حدث ذلك . ثم قيل بعد ذلك أنه سوف يصعد إلى السماء ثم يعود ليحكم العالم ، وقد حدث أنه صعد للسماء . إذن فما هو المطلوب أكثر من ذلك كي يبرهن على صحة وتأكيد هذا الإيمان الذى لايحتاج إلى تبرير .

إن ذلك يجعلنى أعتقد أن يسوع جاء بمثابة المخلص للمسيحية ومن ثم فسواء آمن المسيحى أم لم يؤمن فانه يمثل عضواً فى كنيسة المسيح بل عضواً مخلصاً أيضاً أليس كذلك ؟

إن الرسائل الإنجيلية التي كتبت خلال مراحل ومناسبات مختلفة إنما تعنى هدفا نبيلا واحداً . ومن ثم فانه ينبغى على من يقرأ هذه الرسائل أن يضع فى حسبانه أنها تهدف إلى إيجاد الحجة القوية بين أيدينا . تلك الحجة التى سوف تساعدنا فى معرفة المعنى الحقيقى الذى يدور داخل عقلية ومخيلة الكاتب من حيث أنها الحقيقة التى أوحى بها إليه ، وهى حقيقة التماسك الذى يتمتع به الكتاب المقدس ، وكذلك الترابط الذى يبدو واضحاً بين أجزائه . إنها حقيقة ينبغى علينا الإيمان بها وليست مجرد بعض الجمل المبعثرة ، أو الموضوعة بلا هدف بلغة الكتاب المقدس . إن كلمات الرب إنما تشير إلى أصل الدين وتضع أسس العقيدة المسيحية التى تنادى بالخلاص من الخطيئة ، وإلا فلماذا وضعها الرب فى كتبه المقدسة التى تتحدث عنها التوراة كثيراً ، ويجهلها بعض المسيحيين بل قد لا يؤمنون بها بيد أن رؤية الإنسان العميقة والمتأملة لهذه

الكتابات إنما تطلعه على الحقائق الواضحة الجلية أمام عينيه وكأنها بعض المقـــالات أو الرسائل الانجيلية التي جاءت خصيصاً لهؤلاء الذين يؤمنون بالمسيحية والمسيحيين ذاتهم ، خاصة هؤلاء الذين يلهثون وراء الخلاص .

إن حقيقة الدين تتجلى من خلال التبشير الذى يقوم به مخلصنا يسوع وتلاميذه من أجل هؤلاء الذين مازالوا يعتبرون غرباء وجهلاء لا يعرفون شيئا عن هذا الدين ، وهم ينتظرون من يدفعهم للايمان ، واعتناق الدين المسيحى . وهكذا تحدد الدور الذى لعبه تلاميذ المسيح ، وأصحاب الرسائل الانجيلية من خلال تاريخهم العريق فيما يشهد به كتاب أعمال الرسل ، فضلا عن الرسائل الانجيلية التى كانت ترسل إلى بعض الكنائس ، وكذلك البراهين التى تفسر الهدف من الدين المسيحى وكيفية اعتناقه ، والعمل به من أجل الخلاص ففى إحدى هذه الرسائل الانجيلية إلى شعب أو أهل رومية نجد شرحاً وافيا لمعنى نعمة الرب التى سوف يمنحهـــا الله خالدة لأولاده فى مملكته الذين أصبحوا أولاده وشركاءه فى مملكة الرب فى السماء باعتبارهم ورثتـــه .

وفى موضع آخر من هذه الرسالة اشارة إلى حقيقة الدين المسيحى الذى حاول اليهود القضاء عليه بحججهم الواهية ، وأوهامهم التي جسدوها في طقوسهم الدينية وقرابينهم معتمدين في ذلك على النظام الإقتصادى اليهودى ، ومستندين الى كتب العهد القديم .

والحق أن هؤلاء الكتاب المقدسون (الرسل) قد كتبوا الحقيقة التى لا يعرفون غيرها ومن ثم فانه لا ينبغى علينا النظر الى تلك الرسائل الأنجيلية بعجلة دون أن نتمعن ما جاء فيها من حقائق : ودون النظر إليها باعتبارها

رسائل أساسية وضرورية للخلاص والا فان يصبح المرء عضواً فى كنيسة يسوع المسيح ، كما لن يقبل فى مملكة الرب ويتمتع بحياة الخلود .

ولكن اذا كان الحق هو كل ما جاء بهذه الرسائل الأنجيلية فماذا نقول اذن عن هؤلاء المسيحيين الذين مازالوا يغطون فى نوم عميق على حد قول الرسول بولس في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس : لقد كان الكثيرون منكم يغطون في نوم عميق قبل ظهور تلك الرسائل الإنجيلية .

ان معظم هذه الرسائل الأنجيلية الخاصة بالتبشير لم تكتب الا بعد مرور عشرين عاما من صعود المسيح مخلصنا الى السماء ، كما كتب بعضها بعد ثلاثين عاماً . لكن البعض قد يتساءل ألم تأتى هذه الحقائق التي ذكرت بالرسائل الأنجيلية عن ضرورة الخلاص للمؤمن وغيره على حد سواء فى تبشير يسوع مخلصنا وتلاميذه من قبل ؟ . فما الداعى اذن لنشرها خاصة وأنه لم يكن يوجد هناك أى خطر يهدد هذا الدين ؟ وهل كان يمكن لأى مسيحى أن يناقشها دون خوف أو شك فى أمرها ؟

أننى أقول أن العهد بحرية نعمة الرب هى ناموس هذه العقيدة . وعلى الرب أن يحدد ما هو الضرورى للايمان ، ولكل فرد ما يختار ، أما الله فانه يختار المقياس أو المعيار الذى يحدد صحة تدين وتقوى المتدين الذى يعمل بما جاء فى الدين ، وبما أنزل على الرسل ، لذلك أقول أنه ليس في وسع أى شخص أن يضيف شيئاً إلى هذه الرسائل الإنجيلية التي تتعلق بهذا الإيمان الذى وضع الرب أسسه العريضه . وهو يعلم فى الوقت ذاته متطلبات الخلق ، ولهذا فيجب علينا أن نطيع ما جاء به الرب لكى نتمم بالنعمة المقدسة ، فى عهده الجديد الذى ظهر قبل ذلك من خلال الكتب المقدسة ، وخاصة

هذا الأنجيل الذى يبشر به يسوع المسيح الذى يساعدنا على تحقيق الخلاص المنتظر .

وهناك أجزاء أخرى من الوحى الإلهى تعد أشياء خاصة بأسس وأهداف الإيمان ذاته ، وهى تلك الحقائق التى تبشر بما سيقبل أو يرفض من المرء ، وبمن يؤمن أو لا يؤمن . لأن هذا الوحى الالهى يبين الأساس الذى تقوم عليه الحقيقة التى تؤكد وجود الرب وتبرهن على أنه الحق ، ولقد أوحى بالكثير من هذه الحقائق فى الإنجيل ذلك الكتاب المقدس الذى يجمع الناس حول مملكة الرب من أجل الخلاص ، ورغم ذلك فهناك بعض الأدلة التى تؤكد على سوء تفسير بعض المعانى التى جاءت فى النصوص المتعددة للكتاب المقدس والتى تخلق ضربا من ضروب التناقض فى فهم هذه الكلمات الموحى بها .

إن الوحى الإلهى لا يتطلب سوى طاعة الدين نفسه ، وما يوحى به من حقائق فى الكتب المقدسة ،لأنها تبين ناموس العقيدة التى يتطلب الإيمان بها ، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال الدور الذى قام به مخلصنا يسوع المسيح ورسله أو تلاميذه ، وكذلك من آمن به وأعتنق دينه ، ان هؤلاء هم رجال الدين الذين لا يجب النظر اليهم باعتبارهم غير مؤمنين .

وعلى هذا النحو فانه يجب على كل انسان أن يقبل ما جاء فى الكتاب المقدس من حقائق باعتبارها جزءاً ضروريا من ناموس الإيمان (فان الله ان يقدر الإيمان لأى انسان طالما أنه لم يقبله قبولا حقيقياً) ولذلك فينبغى على كل انسان أن يؤمن بكل ما جاء به الرب وأوحى به من السماء ، وأن يتفهمه جيداً ، ويتجنب الجهل به ، وإلا فكيف يتجنب الجهل فى مثل هذه

الأمور، أنه سوف يتساءل عن كيفية وجود عدة نصوص دينية متباينة وكيف أنها لم توضع فى نص واحد ؟ وما هو العلاج ؟ .

وهكذا فيجب على الإنسان أن يقوم بتفسير تلك النصوص والرسائل الانجيلية معتمداً فى ذلك على العقل ، وعلى ناموس الرب الذى يعد الشيء الوحيد المقبول عقليا إن كل ذلك سوف يحدث اللهم إلا إذا أعتقدنا أن المخلوق الغريب لابد وأن يحكمه ناموسا غريباً .

لقد وعد الله الإنسان بارسال المخلص إليه ، لأنه علم اندفاعه للفساد وشعوره باليأس فجاء يسوع المسيح ـ كما وعد الله ـ لكى يحقق بعض المعجزات ومنها قيامته من الموت ليصبح بجوار الرب ، ويحكم البشر معه أى لكى يصبح ملكهم ، وحاكمهم .

إن هذه الكلمات التي أكتبها هنا إنما تعد من الموضوعات التى يفهمها أى انسان حتى الأمى ذاته يمكن أن يفهم ويستوعب حقيقة هذا الدين ، الذى يضيف إليه رجاله بالأفكار الكثيرة التي تجعل من إنجيله شيئا حقيقيا وأساسيا ، ومعمولا به من خلال الكنيسة ، أو الجامعة أو قاعات المحاضرات ، أو من خلال المناقشات العامة .

وعلى الرغم من كل ذلك فاننا نجد أن الغالبية العظمى من البشر ليس لديهم من الوقت ما يكفى لتعلم الدين والمنطق أوحتى للتمييز بين المدارس ذات المذاهب المختلفة ، وفى حين نجد أن معظم البشر يمسكون المحراث بيد والجاروف بالأخرى نجد أن عقولهم تركز على بعض الأفكار الأخرى أو ممارسة الأشياء الغريبة الغامضة .

والحق أن وجود نزاع أو خلاف حول الكتب الدينية لايحول دون فهم العقول ، أبسط العقول لها لأنه قد يختلف الجميع حول المسائل الدينية لكنهم يفهمون ما يقصده الرب .

ولهذا فيجب على جماعات المصلين أن يتفهموا تلك الأمور الدينية من معلميهم حتى يتقبلوا الأمور والمسائل بدقة وعليهم أن يتفهموا حقائق الدين بدلا من الركون إلى سماع العامة والمشعوزين الجهلاء ، وأننى هنـــا أسأل هؤلاء الداعين للدين على غير حقيقته هل يوجد لدى أتباعكم من الوقت ما يكفى لدراسة الدين ؟ وهل يستطيع من يحضر منهم الاجتماعات الدينية ، أن يتفهم مثل تلك المناقشات والمجادلات الدينية ،وأن يجد من المبررات الكافية لتفسير فكر معين .

وأننى أتساءل من هم هؤلاء البشر الحقيقيين الذين طلب منهم الرب أن يتفهموا هذا الدين هل هم الذين يقرأون الكتاب المقدس، أم هم الذين يختلفون ويجادلون فيما بينهم ، أم أنهم الحكماء الذين يملئون هذا العالم آملين فى أن يصبحوا مسيحيين ، وأتباعا لهذا الدين الذى سينقذهم .

إن أناس مثل هؤلاء الذين يعتمدون على الاحتمالات هم الذين يقول الرسول عنهم لنا فى رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس : « بدلا من أن يغلقوا على أنفسهم ويحتجبوا بعيداً عن بساطة الأنجيل الذى يبسط الطريق أمام هؤلاء الفقراء والجهلاء والأميين الذين يسمعون ويؤمنون بيسوع المسيح الذى يمكن أن يبعث الموتى الى الحياة مرة أخرى ، ويؤمنون بأنه سوف يحاسب كل أمرىء على عمله يوم القيامه ».

لقد جاء الأنجيل يبشر هؤلاء الفقراء ، وهكذا تحددت خطوات يسوع

المسيح على ما جاء فى إنجيل متى فى الاصحاح الحادى عشر ، الآية الخامسة على النحو التالى : « العمى يبصرون ، والعرج يمشون والبرص ، يتطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون والمساكين يبشرون » .

ولقد كان فى وسع هؤلاء المساكين البسطاء أن يتفهموا هذا الانجيل الذى بشروا به لما يتميز به من بساطة ووضوح ، وهذا ما حدث بالفعل ، وما جاء به ـ كما رأينا من قبل ـ يسوع المسيح وتلاميذه » .

تعليـق :

يحاول لوك هنا أن يقرب العقيدة من العقل والمنطق فيعيب على العامة والجهلاء الانصياع وراء الأكاذيب التي لا تمس جوهر الدين . ويحثهم على التقرب إلى الدين وقراءته وفهمه والعمل بما جاء به ، وما سوف يتوافق حتما مع طبيعة ومنطق العقل السليم ، وهنا فانه يحاول ابراز أهمية الدين ومميزات السيد المسيح عيسى بن مريم ، وشهادة المسيح وكافة ما يقدمه الدين للمؤمنين به من وسائل النجاح والتوفيق فى الحياة الدنيا ، وطرق العمل لمرضاة الله ، والعمل بناموس كتابه المقدس .

* فلسفة الدين بين مذهب لوك العملى، ومذاهب الفلاسفة العقليين المسيحيين .

تبين لنا مما سبق الموقف الدينى للوك الذى لم يأت مختلفاً مع موقف فلاسفة عصره السابقين واللاحقين والمعاصرين له ، فقد أستلهم دينه من واقع الكتاب المقدس المسيحى ، واتجه لتعريف السيد المسيح ، وتفسير معجزاته وبيان علامات الدين وأهميته ، ثم حاول التقريب بين عقيدته ، وبين منطق العقل أو ناموس العقل فكأن قانون العقيدة ومسلماتها تتفق منذ الأزل مع طبيعة الانسان وفطرته الأولى .

والحق أن هذا الموقف يتفق وموقف ديكارت الذى كان قد أخفى هذا الاتجاه انسياقاً مع روح العصر (القرن السابع عشر) ومعايشته للظروف ، وتجنباً للخلاف مع السلطة الذى تجرأ سلفه سبينوزا على الوقوف ضدها فلاقى الأمرين ، ومن ثم فقد حاول ديكارت فى الظاهر التخلص من اللاهوت أو استبعاده فاستطاع أن يقدم لنا واجهة عقلية براقة لحامل لاهوتى مستتر .

ورغم أن ديكارت قد حاول اثبات وجود الله بثلاثة أدلة تأدت إلى اثبات وجوده بوصفه كائناً كاملا لا متناهيا ، فقد حاول ديكارت أن ينغمس فى عقيدته من خلال تصور الفعل الإلهى الذى يقول عنه فى أحد نصوصه : « والذين يمعنون النظر فى طبيعة الزمان يجدون أن حفظ جوهر ما فى كل لحظة من لحظات مدته يحتاج إلى عين القدرة ، وإلى عين الفعل اللازمين لاحداثه أو لخلقه من جديد إذا لم يكن بعد موجوداً » (١) .

---

1) Descartes. R. Mediations, E. Thouverez 1941. M, N. 3 p. 194 - 195.

وفى هذا النص يشير ديكارت إلى العناية التى ترفع العالم من العدم فى كل لحظة ، فأن أى جوهر مخلوق ما كان له أن يستمر فى الوجود لحظة ماضية . أو أخرى مستقبلة لولا هذا الحفظ الإلهى المستمر وعلى هذا النحو تبدو فكرة الخلق الإلهى عند ديكارت وقد اقترنت بفعل العناية الإلهية فالعالم يتحرك وفق مشيئته و إرادة الله ووفق علمه المسبق .

وهكذا يتضح لنا مما سبق تمييز ديكارت بين الكون ، والله وهى فكرة أيدتها مسألة الخلق ، وطبقا لميتافيزيقاه فأن المخلوقات لا تتشبه بالخالق كما كان الحال عند أرسطو ، فليس بين الله ، و بين الكون وجه من وجوه المشابهة .

أما إيمان ديكارت بالحفظ والعناية فيأتى من أن العالم فى تصوره كان يحتاج إلى سند ميتافيزيقى لايمانه بالخلق المستمر ، في حين نجد أن بعض المذاهب الأخرى تقصر فعل التكوين أو الخلق على المبادأة أو على الفعل الأول متجاهلة فى ذلك وجود خلق مستمر من المبدأ الأول فى الزمان باعتبار أن العالم مصنوع — قد صنعه الله — هذه المذاهب لا ترى أن العالم يحتاج إلى حفظ وعناية طالما أنه يسير بمقتضى الفعل الإلهى الأول والحكمة الإلهية التى تحيط علما بما يحدث في العالم من حادثات كلية ، ولا علم لها بجزئياته . فالعالم حسب تصور هذه المذاهب يسير وفق نظاما حتميا معقولا .

وهكذا فقد أفسح مذهب ديكارت بفكرته عن الخلق المستمر المجال للتدخل الإلهى المستمر فى الوجود . وعلى نحو ما يشير ديكارت لمبدأ العناية المتمثل فى نظريته عن الخلق المستمر ، فانه يشير كذلك إلى حرية الفعل الإلهى فالله فى مذهبه « علة فاعلة للحسن، والقبح ، وإرادة الله تفعل الممكن،

وتفعل المستحيل ، والله قادر على أن يحدث المتناقضات » .

وعلى نحو ما أشار ديكارت إلى مسألتي العناية والحرية فقد أشار إلى صفات الله . كالوحدانية والأزلية واللانهائية والعلم والقدرة والروحية والبساطة .

يقول ديكارت فى صفات الله : ـ أريد أن أعاين هذا الإله ذا الكمال المطلق ، لكى أنعم النظر فى صفاته البديعة ولكى أتأمل بهاء نوره الذى لا مثيل له ، لكى أتعشقه . وأتعبد له على الأقل بقدر ما فى وسعى ، وما تسمح به قوة ذهنى الذى كأنما يرتد من هذا التطلع مبهوراً ، فكما أن الايمان يعلمنا أن الغبطة العظمى فى الحياة الأخرى انما تنال بهذه المعاينة للجلالة الإلهية ، كذلك تعلمنا التجربة ولا تزال بأن تأملا كهذا ، وان يكن بعيداً كل البعد عن الكمال . يتيح لنا أن نظفر من الرضا بأكبر قسط نستطيع أن ننعم به فى هذه الحياه »[1] وإذا تأملنا هذا النص وجدنا أنه قد غلب على الفيلسوف فى ثناياه شعور دينى واضح ، إذ أن معاينته للاله ، وتأمله لجلاله إنما يطلعانه على إله ذى كمال مطلق ، ذى صفات بديعه حتى يتسنى له أن يتأمل بهاء نوره الفريد ، فيتمكن من محبته والتعبد له على قدر طاقته بوصفه ـ ديكارت ـ مخلوقا وعلى قدرما تسمح له قواه الادراكية البسيطة . الضعيفة . ثم نجد أن الفيلسوف يشير فى ثنايا هذا النص إلى مدى ما يظفر به الانسان من سعاده قصوى فى الدار الآخرة ، ومايناله من رضا فى حياته الدنيا بهذا التأمل للجلال الإلهى من خلال هذا المشهد الفريد بين الله وبين مخلوقاته .

١) ديكارت ، التأملات ، عثمان أمين ، التأمل الثالث ، ص ١٦٤ .

وهكذا يبدو لنا أن هناك اتفاق بين لوك وديكارت فى استمدادهما من منابع الدين المسيحى والأشارة إلى الله ومزايا الدين ، والعمل الخير فى تحقيق سعادة الإنسان وهى تلك السعادة الأخروية التى أشارت إليها مالبرانش من جهة أخرى متفقاً معهم فيها ، خاصة وأنه قد استمد فلسفته من فكر أوغسطين اللاهوتى ، فقد وردت فى فلسفته المتأثرة باللاهوت بعض المسائل الهامة ذات الصلة بالدين المسيحى مثل مسائل الخطيئة ، والنعمة والمحبة وكذلك مسائل الخير والشر ، والحرية الإنسانية والإلهية وهى مسائل استند إليها فى تأسيس مذهبه فى الأخلاق فهو يقول فى ميتافيزيقاه المستمدة من العهد الجديد يقول مسيح « مالبرانش » مخاطباً الإنسان : « أنت هيكل الله الحى وأنت جزء من جوهرى » .

ويتفق لوك مع مالبرانش فى تفرقتها بين الفضيلة والثروة أو الرفاهية ،وأنها لا يجتمعان يقول مالبرانش : «إن الشغف بالثراء والسعى إليه من الموضوعات الرئيسية التي ترضى ملذات الحس ، بينما لا يمثل موضوع الفضيلة شيئا ذا قيمة لعدم اكتراث الناس بها أو بدعاتها [1] » .

ويتفق لوك كذلك مع بسكال فى مسألة صحة الدين التى تأتى من توافقه التام مع الطبيعة الإنسانية منذ بداية التاريخ . يقول بسكال عن أهمية الدين : « ... يقوم الدين بتبرير المتناقضات المثيرة ، والغريبة التى تنطوى عليها طبيعة الانسان ، أنه يرسم للانسان طريق السعاده فى ظل الإله الذى يسعد المؤمن فى القرب منه ، ويشقى فى الانفصال عنه ... إن الدين يعمل على

---

1) Malebranche, N. La Recherche, Tome I p. 455.

تبرير المتناقضات الموجودة فينا أملا فى الوصول إلى الله [1] وتحقيق خيرنا الذاتى ، ومعالجة عجزنا ، وتعريفنا وسائل العلاج » .

أما ليبنتز أو فيلسوف الجوهر الروحى . فقد تصور أن الجوهر سبب كافى لكل التغيرات والتفاصيل ، ولما كانت التغيرات أو التفاصيل ترتبط معاً فى كل إذن فيوجد إله واحد فقط وهذا الإله كافى [2] » وهـــذا الإله الواحد الذى أشار إليه ليبنتز فى ميتافيزيقاه إنما هو الإله الدينى المسيحى الذى أشار الدين إلى وجوده الأولى وهو عند ليبنتز علة وجوده أو موجود ضرورى « لأن الأشياء لا يمكن أن تحصل على سببها الكافى أو النهائى إلا فى الموجود الضرورى الذى يتضمن سبب وجوده فى ذاته » كما أنه الإله الذى يحيط خلقه بالحفظ والعناية التى تظهر إبتداء من خلق العالم على أكمل وأجمل صورة ممكنه إلى عنايته المستمرة له فى كل لحظة من لحظات الوجود ، فالله دائماً مع العالم « وكل نفس ناطقة تشبه إلهاً صغيراً فى دائرتها [3] » وهذا يشير إلى قدرة النفس على الدخول فى نوع من الزمالة مع الله ،وهكذا تتحول العلاقة بين المو ناد الأعظم (الله) والعالم إلى صورة رائعة للعناية ، يصبح الله مخترعا للعالم، بل خالقاً له كما تصبح العلاقة بينه وبين العالم علاقة سامية ومجيدة مثل علاقة الأمير برعاياه أو الأب بأبنائه ، وهذه علاقة مثالية تتسم بالأخلاق لا بالسيطرة . كما أنها علاقة أشار إليها الكتاب المقدس المسيحى تقول

1) Pascal. B: Les penseés pen 430. p. 219.

2) Carr. H. Widom; The Monadology of Leibniz para 38. p. 35.

3) Ibid, para 83 p.35.

الآية : -« كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف بل أخذتم روح التبنى الذى به تصرخ يا أبا الأب الروح نفسه أيضا يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله »[١].

وفضلا عن تصور ليبنتز للاله المسيحى الذى وضعه فى قالب ميتافيزيقى نجد فى فلسفته إشارات أخلاقية إلى نفس ماورد بروح النص المسيحى عن الخير والحب ، والفضيلة يقول ليبنتز : « إن الاله هو موضوع الحب فى الدولة ، وإن ذلك الحب يجب أن يمنحنا سعادة عظيمة لأن موضوعه الله ، وهو ضرب من الحب الحقيقى الذى يحقق خيرنا الأعظم ، كما يشعرنا بأقصى سعادة ممكنة »[٢].

هكذا يبدو الطابع الغالب على مذهب ليبنتز دائماً ميتافيزيقيا فى ظاهره بيد أن تحليله والوقوف على أعماقه يظهر أنه مذهباً فى فلسفة الدين المسيحى فجميع التصورات تعود فى نهاية الأمر . لتخدم فكرة المملكة الأخلاقيه للعناية . أو فكرة اللاهوت المسيحى . الذى أفرد لها ليبنتز كتابا به « العدالة الإلهية » « Theodiceé »الذى يعنى به بحث فى وجود الله وحرية الإنسان ، وأصل الشر كما نشر مع هذا الكتاب رسالة بعنوان « مقال فى موافقة العقيدة الدينية للعقل » حيث يعرض فيه لمزاعم بيل Pierre Bayle

---

١) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ، الاصحاح الثامن ، آية ١٥ ، ١٦ ، ص ٢٥٦ جـ .

2) Leibniz ; Principe de la Nature et de la Grâce para 16 p. 17.

بصدد مشكلة الخير والشر لكي يثبت أن حقائق الاعتقاد فوق مستوى العقل لكنها لاتنافيه . مما يؤكد ما ذهب إليه لوك عن اتفاق حقائق العقيدة مع طبيعة الإنسان وفطرته التي تعلمها جيداً ، وأن حقائق ومسلمات الدين تبدو متوفقة مع منطق العقل ، ولو أن الإنسان رجع إلى عقله ومنطقه السليم لتأكد من صحة حقائق الدين . وهو موقف يبر أصول الدين بمنطق العقل ويوحد بين الفلسفة والدين في وحدة لا تنفصم .

* * *

على نحو ما سبق تبرز لنا مشكلة الصلة بين الفلسفة والدين على نحو ما ظهرت عليه خلال العصر الوسيط ، وإذا كنا ندرس في هذا المقال الصغير مواقف بعض الفلاسفة المسيحيين من الدين مع أنهم كانوا فلاسفة أصحاب مذاهب عقلية ميتافيزيقية في محاولة لمقارنة مواقفهم مع الدين بموقف لوك التجريبي فإننا ننتهي إلى أن التيار اللاهوتي قد ظل كامنا (مستتراً) في في مذاهب فلاسفة القرن السابع عشر عقليين أو تجريبيين فنحن نجد أن ديكارت ـ مؤسس الفلسفة العقلية ـ يضع الله (الميتافيزيقي) في قمـة نسقه المعرفي ويعزى إليه وضوح الفكر وتميزه ومع ذلك فإن تحليل مذهبه يبرز لنا واجهة لاهوتية مستترة خلف مذهبه العقلي تشير إليها عنده فكرة وجود الله ، ونظرية العناية وصفات الخالق ، والأخلاق المسيحية في الحب والخير ، غير ذلك من موضوعات .

وفي حين نادى ديكارت بالعودة إلى العقل باعتباره منبع الفكر الجلي المتميز فقد نادى مالبرانش بالرجوع إليه باعتباره وسيلة اتصالنا بالله الذي توجد فيه معاني معرفتنا ، والمذهب الفلسفي عند مالبرانش ينغمس في الدين

من جهة مع أنه يتابع المذهب الديكارتي ويتأثر به إلى أبعد الحدود ويظهر ذلك بصفة خاصة في مبحثي المعرفة والأخلاق [١].

وإذا كان مالبرانش يتجه إلى الرؤية في الله إثر مسايرته الواضحة لمذهب ديكارت العقلي ، والذي تأدى به منطقيا إلى نظريته في المعاني ، فان بسكال قداهتم بالدين من خلال فلسفته وحاول تبرير الدين بالفلسفة ، فخاض في أعماق نفس الانسان واكتشف ضآلتها وضياعها ولم يكن له من حل سوى العودة إلى الدين الذي رأى فيه الحل ، والاطلاع على مذهبه يكشف لنا عن مذهبا مسيحيا خالصا مع واجهة فلسفية عقلية تارة ، ووجودية تارة أخرى [٢] .

وإذا نظرنا إلى مذهب ليبنتز المثالي (الروحي) وجدنا أنه يحاول إثبات أن حقائق الاعتقاد فوق مستوى العقل لكنها لاتنافيه ، وهكذا تأتي فكرته عن المونادا الأعظم ، والمدينة المثالية « مدينة النفوس الناطقة » ، ومذهبه في الأخلاق ، وفي مشكلتي الخير والشر اللتين عرضهما في كتابيه الرئيسيين في الدين وهما « العدالة الإلهية » ، و « ومقال في موافقة العقيدة الدينية للعقل » - تأتي مؤكدة لموقفه المستتر من اللاهوت المسيحي .

وعلى هذا النحو الذي ظهرت عليه فلسفات هذا القرن (السابع عشر)

---

١) د. راوية عبد المنعم عباس : مالبرانش والفلسفة الإلهية : الباب الرابع والخامس ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٥ .

٢) د. راوية عبد المنعم عباس : بليز بسكال وفلسفة الانسان ، دار المعرفه الجامعية الاسكندرية ١٩٨٦ .

من محاولة التوفيق بين الفلسفة ، والدين بتبرير العقيدة عقليا ، أو الجنوح لما مع الايمان بالعقل . نجد أن فلسفة لوك التجريبية تواكب هي الأخرى تيار العصر . وتعود إلى العقل والمنطق في تبرير حقائق الدين ، كما تحاول أن تقرب البين بين حقائق الدين ، وبين الفطرة الأولى للانسان ، والإطلاع على كتاب « معقولية المسيحية » يكفي شاهداً على هذه المحاولة الناجحة التي يتعرض فيها لوك للعقل في مواجهة حقائق الوحي فيدافع عن الدين ويحترم الفكر ، وينادي بالتجربة الحسية ، كما يهيب بالخبرة في طريق العودة إلى الدين الحقيقي .

(١)

ثبت المراجع ألعربيه والاجنبية

١ - مراجع عربية .
٢ - مراجع أجنبية .

١ ـ المراجع العربية

١ ـ أفلاطون : محاورة فيدون ، محاورات أفلاطون ت . د. زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٥ .

٢ ـ حبيب الشاروني : فلسفة فرنسيس بيكون ، دار الثقـافة ، الدار البيضاء ١٩٨٣ .

٣ ـ ديكارت : التأملات ت د. عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩ .

٤ ـ زكي نجيب محمود: دافيد هيوم سلسلة نوابغ الفكر القاهرة ١٩٥٨ .

٥ ـ زكريا إبراهيم : كانط أو الفلسفة النقدية ، عبقريات فلسفية ، مكتبة مصر الفجالة ط ٢ د ت .

٦ ـ زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية ، مكتبة مصر الفجالة د ت .

٧ ـ عثمان أمين : ديكارت . مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٥ .

٨ ـ على عبد المعطى محمد : تيارات فلسفية حديثة ، دار المعرفة الجامعية ٩٨٤ .

٩ ـ عبد الرحمن خليفة : مقالات سياسية ، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥ .

١٠ ـ عزى إسلام : جون لوك ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

١١ ـ محمد على أبو ريان : الفلسفة الحديثة .دار الكتب الجامعية ط (١) ١٩٦٩ .

١٢ ـ محمد على أبو ريان : الفلسفة أصولها ومبادئها ، المعرفة الجامعية ١٩٨٧ .

٢ ـ المراجع الأجنبية

1 — Aaron, ch : John Locke, Second E,oxford. 1955.

2 — AlBurey. Castell, D.M.B : **An Introduction to Modern philosophy** University of oregn. U.S.A.

3 — Aristotle : **Metaphysics, T.** John warrington London Every man's Library 1926.

4 — A.D. Woozley, **John Locke : AN Essay** fontana Library philos- Alexander. C. Fraser Volame I, 11 N.Y 1894.

5 — Copléston, Frederic K.S.J : **AHistory of Modern philosophy** Volume 5 N.Y. 1963.

6 — Descartes. R : **Oeuvres.** A.T, **Le Monde paris** 1896 - 1910.

7 — ―――――― : Méditaions, ÉMile thouverez paris 1941.

8 — Ernest, Barker : **Social Contract Locke. Hobbes. Rousseau:** London, N.Y. 1976

9 Locke. J : **An Essay Concerning Human understanding.**

10 ―――――― : **Some thoughts Concerning Educotion** London 1965.

11 — ―――――― : **Second Treatise on Civil Government.**

12 — ―――――― : **A Note on Hoppiness** London 1965.

13 — Leibniz, G.W : The Monadology. T : H.W Carr, NY 1930

14 — ―――――― : **Principe de La Nature et de La Grâce,** paris 1878.

15 — Morris. G.R : Locke : **Berkeley and Hume** oxford university 1931.

16 — Maurice Cranston : **Locke on politics, Religion and Education** N.Y. 1965.

17 — Malebranche. N : **La Recherche de La vérité,** Tome 1 Emest Flammarion Editeur, paris 1753.

18 — O'Connor. D.J : **Acritical History of western philosophy John. Locke,** London 1952 the Free press of Golencoe U.S.A 1964.

19 — Pascal. B : **Les Pensées,** ÉMile Faguet Nelson Editeurs 1943.

20 — Popkin. H, Richard, Avrum stroll : **philosophy Made Simple** N.Y 1956.

21 — Russell. B : **A History of western philosophy** London 4 E 1947

(٢)

المحتـــويات

محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الموضوع	رقم الصفحة
٧ ـ المعرفة والنور الفطرى	١٩٠ ـ ١٩٣
٨ ـ الفضيلة بين الفلاسفة ، والدين الخالد	١٩٤ ـ ١٩٥
٩ ـ الدين والحياة والخبرة	١٩٦ ـ ١٩٨
١٠ ـ الدليل على الدين	١٩٩ ـ ٢٠٥
* فلسفة الدين بين مذهب لوك العملى ، ومذاهب الفلاسفة العقليين المسيحيين	٢٠٦ ـ ٢١٤
١ ـ ثبت المراجع	٢١٥ ـ ٢١٩
٢ ـ المحتويات	٢٢١ ـ ٢٢٨


Bibliotheca Alexandrina
0347657